المشروع الشيعي

تأليف

د/ محمد مورو

مكتبة الإيمان .. المنصورة

مكتبة الإيمان

الطبعة الأولى

٢٠٠٧ - ١٤٢٨

مقدمة

المشروع الشيعي

الحديث عن موضوع الشيعة عموماً، والمشروع الشيعي خصوصاً، في هذا الوقت بالذات يحمل أكثر من مضمون واتجاه وهدف، فمما لا شك فيه أن هناك رغبة أمريكية في تأجيج الصراع الطائفي في المنطقة، ومن ثم فإن بعض الحديث يصب في تلك الخانة، ولكن السكوت وعدم قول الحقيقة كاملة حسب اجتهاد الشرفاء يصب أكثر في تلك الخانة، لا بد في هذا الموضوع من الشفافية والمصارحة والمكاشفة، وإلا فإننا ندفن رأسنا في الرمال. وفي الحقيقة فإن الذي أثار الموضوع الشيعي والمشروع الشيعي بقوة على الساحة هو انحياز القطاع الأكبر من شيعة العراق إلى الاحتلال الأمريكي، وهذا في حقيقة الأمر أثار الذاكرة التاريخية حول الدور المريب « لقطاع من الشيعة وتحديداً الشيعة الإمامية الاثنا عشرية » في التآمر على الدولة الإسلامية أو التحالف مع أعداء الأمة فضلاً عن ممارسات مرفوضة ومريبة قامت بها الشيعة الإسماعيلية وامتداداتها من الحشاشين وغيرهم.

يجب أن نطرح الأسئلة الحرجة وغير الحرجة ويجب أن نجيب عليها بلا حساسية وبلا لف أو دوران، هل هناك مشروع شيعي حقاً، وهل يختلف المشروع الشيعي عن المشروع الإيراني ؟ هل المشروع الشيعي أو الإيراني أخطر على الأمة أم المشروع الأمريكي الصهيوني، كيف نتعامل مع هذه المسألة ؟ وفي حالة الصدام بين الأمريكان والإيرانيين مثلاً ففي أي خندق نقف ؟!. وما هي المشكلة في المذهب الشيعي عموماً، والإمامية الاثنا عشرية خصوصاً ؟!.

بداية فإن الشيعة من زيدية وإمامية وإسماعيلية يمثلون أقلية داخل الأمة الإسلامية ويبلغ عددهم من ١٠ – ١٥ ٪ من المسلمين، ومن ثم يجب التعامل معهم في هذا الإطار، بمعنى أنه لا يجب أن نضخم في خطورتهم وفي نفس الوقت لا نمارس ضدهم أي نوع من التمييز

الطائفي، لا يمنع أن يُصدر العلماء بحق الشيعة ما شاءوا من أحكام وفقاً للشرع الحنيف واستناداً إلى علم أصول الفقه السني، وللعلماء أن يختلفوا ويتفقوا في هذا الإطار، ولكن في كل الأحوال لا يجب ممارسة التمييز الطائفي ضد الشيعة ولا حتى ضد النصارى واليهود أو غيرهم. خطورة المسألة الشيعية أنها ارتبطت في اللحظة الراهنة بعدد من العوامل أعطت للمسألة حجماً كبيراً، منها غياب المشروع السني إلى حد كبير، والصحيح أن نقول غياب الكيانات السنية القادرة على حمل مشروع إسلامي غير طائفي من الطبيعي أن يكون السنة هم الطرف الأكبر والفاعل فيه، ومنها أن الظروف خدمت دولة إيران خدمة هائلة، فالاتحاد السوفيتي على حدودها تفكك وكذا قام الأمريكان بضرب كل من طالبان في أفغانستان ونظام صدام حسين في العراق أي أن إيران أصبحت الدولة الأقوى - الوحيدة تقريباً - في محيطها ما عدا تركيا ثم مصر وإسرائيل بعيداً إلى حد ما، وهذا أعطى للإيرانيين الأمل في التمدد وتحقيق حلم فارسي أو إيراني أو شيعي !!. أو السعي لكي تصبح إيران دولة عظمى إقليمياً، ومنها ارتفاع أسعار البترول وزيادة الدخل الإيراني بما يسمح بالإنفاق على المشروع الإيراني أو الشيعي أو الحصول على سلاح نووي أو تقليدي وقد نجحت إيران بالفعل في تحقيق تقدم كبير في تصنيع السلاح التقليدي وفي المجال النووي أيضاً.

وهكذا فنحن أمام خطر حقيقي بسبب وجود الفراغ ! !.

ومن ثم فإن المنطقة تشهد صراعاً بين مشروعين، المشروع الأمريكي الصهيوني، والمشروع الإيراني أو الشيعي، ولكن المشكلة الحقيقية بالنسبة للمشروع الشيعي أو الإيراني أنه لا يملك إمكانيات تحقيق طموحه إلا بالتفاهم مع الأمريكان، ومن ثم فإن المشروع الشيعي — وهو غير المشروع الإيراني وإن كان متداخلاً معه — قام على فكرة إمكانية التحالف مع الأمريكان، وكان يقود ويمثل هذه الفكرة المجلس الأعلى العراقي بقيادة آل الحكيم، وكذا رموز من حزب الدعوة العراقي « المالكي والجعفري وغيرهما » ، ويقف المرجع الديني

آية الله السيستاني مع هذا المشروع بقوة، وهؤلاء تحركهم فكرة أن الشيعة ظُلموا تاريخياً وينبغي الحصول على حقوقهم ولو بالتعاون مع أعداء الأمة، وهذه النقطة تذكرنا بالدور الذي لعبه الشيعة تاريخياً في التحالف مع أعداء الأمة وكذلك الدور الصفوي ضد الدولة العثمانية، على أي حال فإن عبد العزيز الحكيم حاول مراراً وتكراراً التوفيق بين الأمريكيين والإيرانيين ولكن هناك عوامل حالت دون ذلك، كما يقوم السيستاني بمحاولة نشر المذهب الشيعي في بلاد السنة واستخدام أموال البترول العراقي في هذا الصدد، ولكن يحول دون ذلك أن المذهب الشيعي يعتمد على أفكار غير عقلانية مثل عصمة الأئمة، وأن عددهم ١٢ وأن عمر الدنيا ٣٠٠ سنة مثلاً، وأن المهدي - الإمام الأخير لهم - دخل جب وغاب وينتظرون عودته، ويبدو أنهم اضطروا إلى تلك الحكاية حتى لا ينتهي الأئمة دون قيام الساعة ومن ثم يظهر فساد مذهبهم !!.

ما يمنع الاتفاق بين الإيرانيين والأمريكان ليس عدم رغبة الإيرانيين في ذلك، بل إن الإيرانيين يمارسون أسوأ أنواع البراجماتية وهم مستعدون للتفاهم مع الأمريكان، ولكن على حد قول « علي لاريجاني » مسئول الملف النووي الإيراني فإن الأمريكان ليسوا مستعدين لدفع ثمن حقيقي للتفاهم وفي رأيي فإن إيران على استعداد للتخلي عن الملف النووي الإيراني وعلى استعداد أن تبيع حزب الله ولكن في مقابل أن تطلق أمريكا يدها في الخليج فتسيطر على تلك المنطقة البترولية وتقيم إمبراطورية شيعية في إيران والعراق والبحرين وأجزاء من السعودية والكويت... إلخ، ولكن أمريكا ترفض ذلك، لأن هناك مصالح بترولية للشركات البترولية التي تمتلك نفوذاً واسعاً في الإدارات الأمريكية المختلفة، ولأن هناك أجندة لليمين الأمريكي المحافظ تتعارض مع هذا الأمر، وهكذا فإن المشروع الشيعي لا تزال أمامه عقبات كبيرة وليس له مستقبل في التفاهم مع الأمريكان على المدى القصير، ولعل من المفيد أن نفترض مثلاً أنه حدث تفاهم بين الأمريكيين والإيرانيين، وتحقق بالفعل المشروع الشيعي،

فهذا معناه وجود فتنة كبيرة على السنة، ومعناه أيضاً ضياع الأمة الإسلامية لمدة قد تصل إلى ٥٠ سنة، ومعناه أن الغرب سوف يحقق عن طريق هذا المشروع تواجداً في كل العالم الإسلامي واقتسام الغنائم مع الإيرانيين وهذا على حساب الأمة طبعاً، وبعد فترة ربما لا تزيد عن ١٠ سنوات سوف تتفكك إيران ذاتها لوجود أقليات سنية وعرقية داخلها وبسبب التآمر الغربي عليها الذي لن يتوقف رغم التفاهم، وهكذا فإن المشروع الشيعي هو خطر على الأمة، وخطر على إيران ذاتها وهو مشروع تفكيك وتجزئة الأمة بامتياز.

من الطبيعي أن ما يمنع التفاهم هو الغباء الأمريكي أولاً، ثم حزب الله ثانياً، ثم الخلاف على المصالح البترولية ثالثاً، ثم الملف النووي رابعاً وبديهي أنه لا دور لنا في الغباء الأمريكي - وربما يكون هذا من رحمة الله بأمة الإسلام - ولكن ينبغي أن نزيد في تفاقم هذا الخلاف بتقوية حزب الله وليس العكس، ورغم أن حزب الله ورقة إيرانية شيعية في النهاية، إلا أن التفاهم الأمريكي الإيراني سيكون على حساب حزب الله، وفي تلك الحالة لن تتورع إسرائيل عن تصفية الحزب ومحاكمة قادته، لأن اليهود كما هو معروف لا يتركون ثأرهم قط وكذا فإن تركيبة المنظومة القانونية الأمريكية ستجعل من المستحيل على أي حكومة أمريكية منع أي مواطن أمريكي من طلب محاكمة قادة حزب الله على قتل أمريكيين « عملية المارينز سنة ١٩٨٣ مثلاً » ومن ثم فإن الاتفاق الإيراني الأمريكي لن يحول دون مصير أسود لقادة حزب الله وعناصره، ومن ثم فإن حزب الله ليس من مصلحته التفاهم الأمريكي الإيراني، ومن ناحية ثانية فبصرف النظر عن عقائد حزب الله الشيعية فإنه طالما ظل يقاوم إسرائيل فنحن معه، ونحن نقدر لشافيز مواقفه ضد أمريكا، وهو غير مسلم فلماذا لا نقدر ذلك لحسن نصر الله مثلاً، وفي الإطار ذاته فإن علينا أن نتخذ موقفاً غير مزدوج المعايير، نحن مع المقاومة ضد أمريكا وإسرائيل، نحن مع المقاومة الصومالية، والمقاومة الفلسطينية، والمقاومة اللبنانية والمقاومة العراقية والمقاومة الأفغانية، بل هذه المقاومات هي جنين المشروع الإسلامي

غير الطائفي في المنطقة في مواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني والمشروع الإيراني والمشروع الشيعي... إلخ، في نفس الإطار فنحن مع حق إيران في امتلاك سلاح نووي، ولماذا تحرم إيران من ذلك ويسمح به لإسرائيل مثلاً، وإذا وقع عدوان على إيران من أمريكا وإسرائيل فنحن مع الشعب الإيراني لأن هذا واجب أخلاقي وإنساني قبل أي شيء. ومن ثم تصدقنا جماهير الأمة، فلا نكون مزدوجي المعايير مثل الإيرانيين، فنقف في لبنان موقفاً هو عكس الموقف في العراق، فنقف ضد حكومة السنيورة بدعوى موالاتها للغرب « أمريكا وفرنسا » وتؤيد حكومة المالكي الموالية للاحتلال في العراق.

بالطبع فإن فهم الموقف الإيراني يقتضي قدراً من التركيب، فإيران في المحصلة النهائية تريد التفاهم مع الأمريكان، ولكنها تجمع أوراقاً في يدها استعداداً للصدام أو التفاوض، ومن ثم فيمكنها أن تمول وتسلح الجيش العراقي والشرطة العراقية المعادية للمقاومة والموالية للاحتلال، ويمكن أن تدعم على العكس حركات مقاومة داخل العراق أو تحرض أطرافاً من القوى العراقية على مشاغبة أمريكا وهي تتفاوض مع الأمريكان في العراق، وهذا سلوك مفهوم، وهو الإمساك بكل الأوراق المتعارضة ما أمكن ذلك.

ولعل من المفيد هنا أن نقول أن في إيران أكثر من اتجاه يختلف عن بعضه البعض في التكتيك ولا يختلف في الاستراتيجية، ويعمل كل منهم منفرداً، مثلاً اتجاه الإصلاحيين الذي يدعو إلى ما يسمى بالمشروع الإيراني، وهذا غير المشروع الشيعي، هذا المشروع لا يعنيه شيعة العراق ولبنان، ولا يعنيه دعم حماس والجهاد وحزب الله، بل يعنيه المصالح الإيرانية المباشرة، لا تعنيه الإمبراطورية الشيعية ولكن تعنيه الإمبراطورية الفارسية وقوة الدولة الإيرانية، وهذا الاتجاه ومن ثم المشروع الإيراني موجود ولكن في المعارضة في إيران، أما الاتجاه المحافظ الذي يمسك بمعظم السلطة في إيران مثل مرشد الثورة علي خامنئي ورئيس الجمهورية أحمدي نجاد... إلخ فهو مع المشروع الشيعي طبعاً.

مرة أخرى فإن المشروع الشيعي خطير، ولكن ليس له فرصة في النجاح إلا بالتفاهم مع الأمريكان، وعلينا أن نمنع ما أمكن من هذا التفاهم ولكن يجب أن نقرر هنا أن المشروع الأمريكي الصهيوني هو أخطر من المشروع الشيعي، لأنه خطر استراتيجي يستهدف اجتثاث أمة الإسلام من جذورها، وهو جزء من الصراع الحضاري التاريخي بين الأمة الإسلامية والحضارة الغربية، وهو أخطر لأن إمكانيات أمريكا وإسرائيل والغرب كبيرة جداً ومن ثم فإن خطرهم كبير جداً ولا يجب بأي حال من الأحوال أن نقع في فخ التحالف مع الغرب ضد المشروع الشيعي، بل الصحيح أن نقاوم المشروعين معاً، وأن نقدم نحن المشروع الإسلامي غير الطائفي وهذا ممكن ومتاح، ويجب علينا أن نحرر خطابنا وممارساتنا من اللعب على الورقة الأمريكية والنغمة الأمريكية، وأن نضع كل شيء في نصابه الصحيح بالنسبة للخطر الأمريكي الغربي الصهيوني، والخطر الشيعي والإيراني.

د/ محمد مورو

يتركز تواجد الشيعة الاثنا عشرية بنسبة كبيرة في إيران والعراق وأذربيجان والبحرين، وبنسبة مهمة في كل من الكويت ولبنان وفي مناطق عدة كالقطيف والإحساء والمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية وفي مسقط والباطنة في سلطنة عمان، وباقي دول الخليج العربي وباكستان وأفغانستان والهند وفي دول آسيا الوسطى.

ويتواجد الشيعة الإسماعيلية في نجران في المملكة العربية السعودية والهند، أما الشيعة الزيدية فيتركز تواجدهم في اليمن.

هل نترك العراق للإيرانيين

انهزم الأمريكان في العراق ولا داعي للمكابرة، وحديث الفشل والهزيمة الأمريكية في العراق أصبح حديثاً متواتراً، لا ينكره عدو أو صديق وهذا بالطبع يقتضي التفكير في مستقبل العراق بعد الانسحاب الأمريكي من هناك، علامات الهزيمة ومن ثم الانسحاب المتوقع أكثر من واضحة.

- فالرئيس جورج بوش بنفسه، قال: إن كل الاحتمالات بالنسبة للعراق مفتوحة وذلك عقب هزيمة الجمهوريين في انتخابات الكونجرس، وهو الذي كان يصر دائماً على عدم الانسحاب من العراق، وأن وجود القوات الأمريكية هناك هي للدفاع عن الداخل الأمريكي ذاته ضد الإرهاب، أي محاربة الإرهاب في العراق بدلاً من انتظاره في واشنطن ونيويورك، وكلام جورج بوش عن كل الاحتمالات المفتوحة، يعني ضمناً موافقته على الانسحاب من العراق، ومن ثم يصبح الأمر مرتبطاً بكيفية هذا الانسحاب مع المحافظة على ماء وجه أمريكا في العالم وعدم تطور هذا الانسحاب إلى هزيمة أمريكية في الحرب على الإرهاب وكذا اختيار الزمان الملائم لهذا الانسحاب.

- الإطاحة بوزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وهو أمر لا يمكن حسبانه بأنه مجرد تغيير وزير، فالرجل أحد أهم رموز المشروع الإمبراطوري الأمريكي وأحد أهم منظري ومهندسي المحافظين الجدد، والمسئول الأول عن الحرب في العراق، وهذا يعني اعترافاً بالفشل الأمريكي في العراق وتمهيداً للانسحاب منه.

- إصرار الديمقراطيين الذين فازوا في انتخابات الكونجرس بمجلسي النواب والشيوخ، على ضرورة الانسحاب من العراق، وبما أنهم أغلبية في مجلس النواب والشيوخ، فإن ميزانيات الحرب ستكون تحت سيطرتهم ومن ثم فإن الاستمرار في تلك الحرب سيكون شديد الصعوبة بالنسبة للرئيس بوش وإدارته، مع الأخذ في الاعتبار هنا أن الناخب الأمريكي قال بوضوح أنه

لا يريد الاستمرار في تلك الحرب وأنه يرغب في انسحاب أبنائه من العراق.

- التقارير السابقة والحالية التي أصدرتها أجهزة استخبارات، ولجان برلمانية كلها تقر بالفشل هناك وعدم إمكانية النصر ومن ثم فإن الانسحاب هو النتيجة الحتمية لذلك.

وإذا كان الانسحاب الأمريكي من العراق بات شبه مؤكد، فإن من الضروري دراسة ما بعد الانسحاب الأمريكي من العراق، يجب أن نرصد أن هناك رأياً أمريكياً وبريطانياً يدعو إلى التفاهم مع سوريا وإيران بهذا الصدد وبديهي أن ذلك تكتنفه صعوبات شديدة، ولكنه احتمال موجود، وبديهي أنه لو تم ذلك سيكون لحساب شيعة العراق وعلى حساب السنة تحديداً قبل ذلك وبعده، فإن النفوذ والتواجد الإيراني في العراق واضح وملموس وهم يمدون العلاقات والدعم لكل أطياف الشيعة والأكراد، ليس فقط المرتبطون بالاحتلال الأمريكي مثل الحكيم والمالكي والطالباني بل وكذلك للواقفين على بعد خطوات من ذلك الاحتلال دون معاداته طبعا أو مقاومته مثل مقتضى الصدر وغيره، وهكذا فإن كل الأوراق من الممكن أن تسقط بفم الإيرانيين، ونحن هنا أمام مشروعين مختلفين ولكنهما متداخلان، المشروع الإيراني الذي يدعو إلى دولة إيرانية فارسية قوية وقد تجلى ذلك في البحث عن المصلحة الإيرانية يصرف النظر عن كل شيء حتى المذهب الشيعي ذاته وقد تجلى ذلك في التعاون الإيراني الأمريكي في أفغانستان، والمشروع الشيعي الذي يدعو إليه شيعة العراق، ويحظى بدعم المرجعيات الدينية الإيرانية وكذا المرشد الأعلى للثورة الإيرانية والرئيس الإيراني أحمد نجاد أيضاً، أي أن المشروع الشيعي يحظى حالياً بدعم المؤسسة الحاكمة في العراق، والمراجع الدينية أيضاً، وكان الإصلاحيون في إيران هم الذين يدعمون المشروع الإيراني أساساً، وبخروجهم من السلطة، يكون الإيرانيون قد انحازوا تماماً إلى المشروع الشيعي الذي يدعو إلى دولة شيعية عظمي، تضم كل شيعة المنطقة، وبديهي أن كلاً من المشروعين الشيعي والإيراني متداخلان وبديهي أن أي منهما ليس له فرصة للنجاح بدون

التفاهم مع الأمريكان وهذا أخطر ما في الموضوع، المشروع الشيعي يعمل بهمة ونشاط وهناك شخصيات وأحزاب شيعية عراقية تبيع البترول لحساب نفسها (الحكيم مثلاً) عن طريق التلاعب في عدادات النفط أو إلغائها من الأساس، وتصدير هذا البترول إلى إيران ومن ثم إلى الخارج لحساب هؤلاء، وهذه الأموال بالإضافة إلى غيرها تنفق لنشر المذهب الشيعي في كل مكان، وهناك نشاط ملحوظ في هذا الصدد في مصر مثلاً، وخطورة هذا المشروع ليس في إمكانية نشر المذهب الشيعي، فهذا أمر صعب، لأنه مذهب يفتقر إلى العقلانية « دعوة المهدي الغائب في الجب مثلاً » ويفتقر أيضا إلى البريق الثوري بعد افتضاح أمر الشيعة بتعاونهم مع الأمريكان وكذا تاريخهم السيئ في معاداة الدولة العثمانية وغيرها، وكذا فإن المذهب السني شديد التماسك وهو لا يرفض حب آل البيت، بل يرفض المغالاة في ذلك فقط، وبه من الاتساع والمرونة ما لا يسمح بالحديث عن إمكانية نشر المذهب الشيعي، وهكذا فإن محاولة نشر المذهب الشيعي لن يؤدي إلا إلى تمزيق الأمة بالتعاون مع الغرب وهو سلوك شيعي تقليدي مارسته الدولة الصفوية، هذا المشروع بالطبع به تناقض شديد، حيث سيكون أيضاً على حساب حزب الله في لبنان وحماس والجهاد في فلسطين، والمهم هنا هو أن هذا المشروع مثلاً يدعو للتعاون مع أمريكا في العراق ومعاداتها في لبنان.

أياً كانت فرص هذا المشروع من النجاح فإنه فتنة كبرى للأسف في غياب دعم سني للمقاومة العراقية والمقاومة الفلسطينية، والسؤال الآن هل تترك الدول السنية الكبيرة، والقيادات والزعامات، والأحزاب السنية الأمور تسير على عكس مصلحة الأمة أولاً، ومصلحة السنة ثانياً، ومصالح هؤلاء الشخصية ثالثاً، لأنه من البديهي أنه لا مستقبلاً لهؤلاء في حالة نجاح المشروع الشيعي، هل تتحرك الدول السنية أم تقف متفرجة، هل يتحرك كل من يحس بالخطر والغيرة على الأمة الإسلامية عموماً، وعلى السنة خصوصاً وعلى أنفسهم بشكل أخص من ملوك ورؤساء وزعماء!!.

العراق: مستنقع للطائفيّة.. أم قاعدة للتحرر؟!

لا شك أن مستقبل العراق لا يخص العراق وحده، وشكل وطبيعة الوضع العراقي المستقبلي سيكون له آثار قريبة ومتوسطة وبعيدة المدى على المنطقة كلها؛ بل وفي مجمل الأوضاع الدولية كذلك.

استهدفت أمريكا من احتلال العراق - في إطار مشروع الهيمنة الإمبراطوري الذي يحلم به اليمين الأمريكي الجديد- التمدّد الإمبراطوري، ووضع قاعدة للقفز منها في كل الاتجاهات في سوريا ولبنان والخليج ومصر، وحسم المسألة لصالح إسرائيل في المنطقة، وبناء قوس من التواجد العسكري الأمريكي في آسيا وحول بحر قزوين، وأفغانستان، وحصار الصين وروسيا، والسيطرة على مناطق البترول أو معظمها في العالم، للتحكم في مسار الاقتصاد العالمي، ومنع تطور الرأسماليات القوية في أوروبا « ألمانيا » ، واليابان أو الدول الصناعية الكبرى، و تلك التي تنمو بصورة سريعة « الصين » . وبديهيّ أن البترول هو عصب التطور الصناعي ومن ثم الرأسمالي، ومن يسيطر عليه يستطيع أن يتحكم في كل هؤلاء، وفي حجم المسموح به، من التصنيع والتطور. بالإضافة –بالطبع- إلى أسباب أخرى ثقافية وحضارية.

ولكن ظلالاً من الشك قد ظهرت حول ذلك المشروع الإمبراطوري. تلك الظلال من الشك لم تكن في حسبان الأمريكان؛ فاندلاع المقاومة العراقية سريعاً جداً ربما هي الأسرع في تاريخ مقاومة الشعوب للاستعمار، وبصورة واسعة شديدة الكفاءة والتميز، جعل من الصعب على الأمريكان ليس فقط صعوبة إلحاق الهزيمة بها، بل وأحس القادة الأمريكان أن مسلسل الخسائر اليومي لأفراد القوات الأمريكية لا يمكن احتماله طويلاً، ومن ثم بدأ التفكير في سيناريو بديل يحقق أقل قدر من النتائج المعاكسة في حال انسحاب الأمريكان من العراق.

المخطط الأول الأمريكي - أي مخطط استخدام العراق كقاعدة انطلاق - لولا ظهور المقاومة، كان يقتضي استمرار وحدة العراق، وبناء نظام ديمقراطي « بمقاييس محددة » كنموذج. ولكن مع إخفاق هذا المخطط بدأ التفكير في إحداث نوع من الفتنة الطائفية حتى إذا ترك الأمريكان العراق لا يصبح قاعدة للتحرر الوطني في المنطقة.

المقاومة إذن هي العامل الأهم هنا في تحديد مسار التفكير المخطط أو السيناريو الأمريكي للعراق، وبداية فإن العسكرية الأمريكية فعلت كل شيء، من أجل القضاء على المقاومة، استخدمت كل الأسلحة: الطائرات، والدبابات، والصواريخ، واقتحام المدن، والقتل العشوائي، والاعتقال والتعذيب ولكن المقاومة في كل مرة كانت تزداد قوة، وهكذا وصلت الولايات المتحدة إلى نتيجة مفادها عدم إمكانية القضاء على المقاومة. وسياسياً فعلت الإدارة الأمريكية كل شيء؛ جاءت بحكومات عميلة، أنشأت جيشاً وشرطة من الطوائف والقوى الموالية للاحتلال، ولكن كل ذلك لم يقدّم ولم يؤخر، والمحصلة النهائية أنه لا السيناريوهات السياسية ولا العسكرية قادرة على القضاء على المقاومة.

وهكذا كان على الولايات المتحدة أن تمنع بأي ثمن تحوّل العراق في حال انسحابها إلى قاعدة للتحرر الوطني، أي نقطة تجمع وانطلاق للقوى المناهضة لأمريكا وإسرائيل في المنطقة.

كان المطلوب حصار ذلك الأثر المتوقع والحتمي إذا ما خرج الأمريكان وانتصرت المقاومة، كان لا بد إذن من محاولة بناء واقع طائفي يتحول مع الوقت إلى مستنقع طائفي، بدأت أمريكا تؤسس لهذا السيناريو الاحتياطي في البداية، والذي تحول إلى سيناريو رئيسي، بعد ذلك بدأت المسألة فيما يُسمّى « توزيع المناصب بالمحاصصة الطائفية » في الوزارات والإدارات، ثم بالتفاهم والتعاون مع القوى الطائفية « المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجماعة الحكيم، وحزب الدعوة - الجعفري - والأحزاب الكردية » ، ثم إجراء

انتخابات مع استخدام نفوذ المرجع الشيعي الأعلى السيستاني لتحقيق نتائج طائفية، ووضع دستور يكرس الطائفية، ثم بناء جيش وشرطة « شبه طائفية » لتنفيذ مجازر في المدن السنية « الفلوجة » ، الأنبار، تلعفر، سامراء، الفاتح.. إلخ، ومحاولة تصفية جماعة مقتدى الصدر رغم أنها شيعية؛ لأنها ترفض السلوك الطائفي وترفض الاحتلال، ودفع جماعات المقاومة إلى ردود أفعال طائفية عن طريق الاستفزاز الطائفي، وافتعال أعمال ضد أفراد وجماعات ومساجد ومؤسسات شيعية ومناسبات دينية ثم لصقها بالمقاومة عموماً، وبجماعة الزرقاوي خصوصاً، وهكذا يتحوّل العراق إلى مستنقع طائفي، ومع ما يحدث في لبنان من ممارسات تقود بدورها إلى الطائفية بتشجيع أمريكي كامل، ومع الأخذ في الاعتبار وجود شيعة في العراق والسعودية والبحرين والكويت ولبنان وسوريا. ووجود أكراد في سوريا والعراق وتركيا وإيران، لأمكننا فهم وإدراك خطورة هذا الأمر، الذي سيحول المنطقة إلى جحيم طائفي، ويؤخر تطورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي طويلاً جدًّا.

بالطبع يجب ألاّ تقف القوى السياسية المخلصة في العراق والمنطقة أمام هذا المخطط الشيطاني مكتوفة اليدين، لا بد أن تدرك أولاً أن السيناريو الأمريكي ليس قدراً، وأن بالإمكان إفشاله، وعلى كل فرد وجماعة وحزب أن يعمل على إفشال هذا المخطط الطائفي، ولعل من المفيد هنا أن نقول: إن جماعات المقاومة في العراق لديها فرصة تاريخية لجعل العراق قاعدة للتحرر والنهضة والوحدة العربية والإسلامية، وإنهاء النفوذ الأمريكي والصهيوني في المنطقة، وأن تلك المقاومة قد أعادت روح الأمل إلى الأمة، وحققت منجزات هائلة بكل المقاييس، بل عطلت المشروع الأمريكي الصهيوني بكامله، والعالم كله يعلم فضلها عليه في هذا الصدد، ولكن إذا انساقت جماعات المقاومة أو بعضها وراء الاستفزاز الأمريكي وتصرفت تصرّفات طائفية فإنها هنا تخطئ خطأً تاريخياً في حق نفسها وحق أمتها وحق بلدها العراق، وحتى إذا كانت بعض الممارسات أو الأعمال الطائفية قد صدرت عن بعض

جماعات المقاومة؛ فإن عليها أن تتوقف عن ذلك فوراً، وأن تعلن بوضوح رفضها لتلك الأفكار والممارسات، ويجب على جماعة أبو مصعب الزرقاوي تحديداً أن تعلن بوضوح رفضها لأي سلوك أو فكرة طائفية، وإلا فإنها تكون تعمل لمصلحة الأمريكان دون أن تدري، ويكون أداؤها على مستوى فعل المقاومة العسكرية، مرتبطاً بأداء سياسي شديد الغباء والتخلف وعدم إدراك فقه المصالح والمفاسد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حدود الدم: خارطة «الشرق الأوسط الجديد» التي تبشر بها رايس

نشر موقع (مجلة القوة العسكرية) الأمريكي خارطة جديدة للشرق الأوسط الجديد وفقاً للرؤية الأمريكية مرفقاً بمقال للجنرال الأمريكي المتقاعد رالف بيتر تحت عنوان (حدود الدم) يشرح فيه التقسيم الجديد للمنطقة حسب الرؤية الأمريكية. ويستدل من المقال والخرائط المرفقة به أن بوش يسعى إلى استقطاع أراض من دول في المنطقة وضمها إلى دول أخرى بل وإعادة أمجاد دول غابرة على أنقاض دول حالية لا يريد لها بوش الوجود. وحسب الموقع الأمريكي فإن الدول المستهدفة بالتقسيم والاستقطاع هي: سورية، العراق، السعودية، الإمارات، تركيا وإيران. وبناء على ما نشر فإنه سيتم توسيع بعض الدول لأسباب سياسية.

وحسب الخارطة سيظهر الشرق الأوسط الجديد على الشكل التالي:

اليمن: ستضم إليه أجزاء من السعودية

الأردن الكبير: تضاف إلى أراضي الأردنيين الحالية أجزاء من السعودية والضفة الغربية وربما أجزاء من جنوب سورية وسكانها من الأردنيين والفلسطينيين وفلسطينيي الشتات.

أفغانستان: تحصل على أراض من باكستان وتفقد جزءاً من أراضيها لصالح بلاد فارس.

اما الدول الجديدة التي يريد بوش إقامتها فستكون كالتالي:

دولة كردستان الكبرى: وستشمل كردستان العراق وكركوك وأجزاء من تركيا وإيران وسورية.

دولة شيعستان: وتشمل جنوب العراق والجزء الشرقي من السعودية والأهواز.

دولة سنستان: وتنشأ على ما تبقى من العراق وربما تدمج مع سورية.

دولة بلوشستان الجديدة: وتقوم على أجزاء من باكستان وإيران.

الدولة الفارسية: وتقوم على أنقاض إيران الحالية وأجزاء شيعية من أفغانستان

الدولة الإسلامية المقدسة (على غرار دولة الفاتيكان): وتضم منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة.

دولة السعودية: وتفقد أجزاء كبيرة لصالح اليمن والأردن.

وننشر فيما يلي ترجمة للمقال، وضعها الدكتور خليل السعيد ونشرها موقع «الصفصاف» للزميل نضال حمد:

حدود الدم ـ رالف بيتر

في موقع مجلة القوة العسكرية تموز ٢٠٠٦ نشرت خارطة جديدة للشرق الأوسط مع مقال معنون (حدود الدم) (حددت ملامح جديدة لخارطة شرق أوسطية جديدة والتقرير يفترض أن الحدود بين الدول غير مكتملة وغير نهائية خصوصاً في قارة إفريقيا التي تكبدت ملايين القتلى وبقيت حدودها الدولية بدون تغيير والشرق الأوسط الملتهب والمتوتر منذ عقود، هذه الحدود التي شكلتها أوروبا (الفرنسيون والبريطانيون في أوائل القرن العشرين)، من الدولتين اللتين كانتا تعانيان من هزائمهما في القرن التاسع عشر فكان التقسيم عبئاً عليهما وجاء من عدم الإدراك لخطورة هذا التشكيل الذي قسم قوميات على جانبي الحدود وأصبحت كتلاً قومية كبيرة ومبعثرة على جوانب الحدود لعدة دول، وقد يضم الكيان السياسي المستقل أثنيات وطوائف متناحرة.

أن حدود الشرق الأوسط تسبب خللاً وظيفياً داخل الدولة نفسها وبين الدول من خلال أعمال لا أخلاقية تمارس ضد الأقليات القومية والدينية والأثنية. أو بسبب التطرف الديني أو القومي والمذهبي. أن لم الشمل على أساس الدين والقومية في دولة واحدة لن يجعل الأقليات سعيدة ومتوافقة، إن القومية الخالصة أو الطائفة وحدها يمكن أن تجد مبرراً لتغيير الحدود ولتشكيل كيان سياسي لها كما يفترض التقرير، وللمقارنة انظر الخارطة السياسية قبل التقسيم (رقم ١).

الرؤية الجديدة لشرق أوسط ما بعد التقسيم حسب ما نشرت على الموقع الأمريكي في هذه الرؤية التقسيمات ليست على أساس خرائط معدة مسبقا بل أعدت على أساس وقائع ديموغرافية) الدين، القومية والمذهبية). ولأن إعادة تصحيح الحدود الدولية يتطلب توافقاً لإرادات الشعوب التي قد تكون مستحيلة في الوقت الراهن، ولضيق الوقت لا بد من سفك الدماء للوصول إلى هذه الغاية التي يجب أن تستغل من قبل الإدارة الأمريكية وحلفائها. يفترض أن إسرائيل لا يمكنها العيش مع جيرانها ولهذا جاء الفصل عن جيرانها العرب ولذا فإن الطوائف المتباينة التي لا يمكن التعايش فيما بينها من الممكن تجميعها بكيان سياسي واحد.

الأكراد على سبيل المثال أكبر قومية موزعة على عدة دول بدون كيان سياسي. عليه فإن الولايات المتحدة وحلفاءها لا تريد أن تفوت فرصة تصحيح (الظلم) بعد احتلال بغداد مستفيدة من فراغ القوة التي كان يشكلها العراق الذي أصبح مؤكداً الآن بأنه الدولة الوحيدة في العالم التي كانت الحاجز العظيم أمام تنفيذ المخطط الأمريكي للمنطقة، والدول المستهدفة بالتقسيم والاستقطاع هي إيران تركيا العراق السعودية وباكستان وسوريا والإمارات، ودول ستوسع لأغراض سياسية بحتة، اليمن، الأردن وأفغانستان.

الدول الجديدة التي ستنشأ من تقسيم العراق تنشأ ثلاث دويلات (كردستان وسنيستان وشيعستان) و (دولة كردستان الكبرى)، وستشمل على كردستان العراق وبضمنها طبعاً كركوك النفطية وأجزاء من الموصل وخانقين وديالى، وأجزاء من تركيا، إيران وسوريا، أرمينيا وأذربيجان، وستكون أكثر دولة موالية للغرب ولأمريكا.

(دولة شيعستان)، وستشمل على جنوب العراق والجزء الشرقي من السعودية والأجزاء الجنوبية الغربية من إيران (الأهواز) وستكون بشكل حزام يحيط بالخليج العربي. (دولة سنيستان) ستنشأ على ما تبقى من ارضى العراق وربما تدمج مع سوريا. وخلق

(دولة بلوشستان الجديدة)، التي ستقطع أراضيها من الجزء الجنوبي الغربي لباكستان والجزء الجنوبي الشرقي من إيران.

إيران ستفقد أجزاء منها لصالح الدولة الكردية وأجزاء منها لصالح دولة شيعية عربية وأجزاء لصالح أذربيجان الموحدة، وستحصل على أجزاء من أفغانستان المتاخمة لها لتكون دولة فارسية.

أفغانستان ستفقد جزءا من أراضيها الغربية إلى بلاد فارس وستحصل على أجزاء من باكستان وستعاد إليها منطقة القبائل.

السعودية ستعاني أكبر قدر من التقسيم كباكستان وستقسم السعودية إلى دولتين دولة دينية (الدولة الإسلامية المقدسة) على غرار الفاتيكان، تشمل على كل المواقع الدينية المهمة لمسلمي العالم، ودولة سياسية (السعودية) وسيقتطع منها أجزاء لتمنح إلى دول أخرى(اليمن والأردن). ستنشأ دولة جديدة على الأردن القديم بعد أن تقتطع أراض لها من السعودية وربما من فلسطين المحتلة لتشمل على كل فلسطينيي الداخل وفلسطينيي الشتات (الأردن الكبير). (اليمن سيتم توسيعه من اقتطاع أجزاء من جنوب السعودية وتبقى الكويت وعمان بدون تغيير).

لماذا الآن ؟

لماذا يتم عرض هذه الخارطة الآن؟.

وما هو الغرض من عرضها بموقع عسكري أمريكي رسمي؟.

الإدارة الأمريكية كانت قد طرحت مبادئها وتصورها عن شرق أوسط (ديمقراطي) جديد، يبدأ من إلغاء الخرائط الاستعمارية القديمة التي أنشأها الاستعمار الفرنسي والبريطاني في بداية القرن العشرين لانتفاء الحاجة إليها بسبب المتغيرات القومية والطائفية الجديدة للبلدان المعنية بالتقسيم.

التقسيم والاقتطاع وسيلة لإضعاف الدول التي تتعرض للتقسيم والاقتطاع، الدول الجديدة التي ستنشأ ستكون موالية تماماً للإدارة الأمريكية بحكم العرفان بالجميل للعناصر الانفصالية المستفيدة إلى الدولة التي منحتهم الاستقلال، والدول التي ستتوسع ستكون مدينة أيضاً بموالاتها لمشروع التقسيم والضم. والأردن الكبير سيكون الحل الأمثل للمشكلة الفلسطينية واللاجئين الفلسطينيين ونقطة جوهرية لتخليص إسرائيل من مشكلة تواجهها باستمرار وهي التغيير الديموغرافي للسكان لصالح الفلسطينيين في حال تطبيق قرارات مجلس الأمن ذات الصلة.

لكن السؤال المطروح هو هل هذا هو الحل الممكن للتخلص من المشاكل التي تواجه استراتيجية الولايات المتحدة للسيطرة على العالم وعلى مصادر الطاقة؟... أم أنها ستكون بؤراً جديدة للتوتر ونوعاً جديداً من الحروب بين الكيانات القديمة والجديدة(المثال الكوري) والاقتتال الداخلي والتوتر غير محسوب العواقب(تيمور الشرقية).

إن محاولة تقسيم العراق بأيدي عملاء عراقيين باتت معروفة وكشفت معظم خيوطها، فهل يمكن أن تجر الدول الأخرى بنفس الطريقة. ربما يكون طرح الفكرة والخارطة التقسيمية مجدداً هو ورقة ضغط على:

١- تركيا.... في حالة معارضتها لمشروع الدولة الكردية في كردستان العراق المقترح إقامتها في حال فشل المشروع الأمريكي السياسي والعسكري في العراق لتكون كردستان المكان الآمن لقواتها في حالة انسحابها

٢- إيران... كتهديد مباشر على تدخلها السافر في العراق وتجاوزها لخطوط حمراء وضعتها الإدارة الأمريكية لها

٣- السعودية لمنعها من دعم (المتمردين) أو لفيدرالية شيعية في الجنوب.

٤- باكستان.... لضمان عدم ترددها بضرب (طالبان) والعناصر الإسلامية المتشددة

وضمان بقائها ضمن المشروع الأمريكي.

٥- اليمن والأردن لإغراقهم بحلم التوسع والأكراد بحلم خلق دولة جديدة لهم. كمكافأة غنية لمدى دعمهم للمشروع الأمريكي هذا هو الحلم الأمريكي، وحلم الانفصاليين والتابعين والسائرين ضد أحلام ومستقبل شعوبهم

إن التقسيم والاقتطاع لتشكيل دول جديدة أو توسيع لدول قديمة لا يمكن أن يمر دون أحد أمرين وهما: إما بالاتفاق وهو أمر مستحيل لدولة مستقلة ومستقرة ذات كيانات سياسية معترف بها دولياً بهذا الشكل أو أن يتم بالتقسيم القسري بالشكل الذي ينجز حالياً في العراق. وتمنح الإدارة الأمريكية الآن وبسرعة الأولوية القصوى لإنجاحه ومن ثم تعميمه على المنطقة ككل. لقد كان من الضروري للدول المعنية بالتقسيم والاقتطاع أن يكون العراق الخطوة الأولى، ومن هنا تجيء خطورة المقاومة العراقية بكل فصائلها على مشاريع الإدارة الأمريكية وحلفائها في إفشال ليس الاحتلال نفسه ولكن إنقاذ المنطقة كلها والعالم من هذا الشر القادم الذي قد يؤدي بنهاية المطاف إلى إغراق العالم بسلسلة من الحروب قد تنتهي بحرب مدمرة للبشرية

المقال مأخوذ من موقع: «كل يوم. نت»

المشروع الاسلامي

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا.

إذا كان من الضروري بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة ليس لها سمات ولا خصائص وكذلك أننا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقوانين وسنن الفيزياء والكيمياء... إلخ، لكان علينا في البداية تحديد من هي هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها، وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية - العالم العربي والإسلامي - لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل بل وتكريس الحالة التي نريد علاجها، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا، وبالتالي فإن المكون الرئيسي والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين (الأغلبية الساحقة) وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة، وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأي مشروع هو إسلاميته ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية (١٤ قرناً على الأقل واتساع جغرافي وامتداد زماني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب) وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة

والثقافة الإسلامية - بوعي أو بدون وعي - كرهاً أو رغباً هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسخ ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء للتحديات والأمراض، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي (العلماني الليبرالي، العلماني القومي، العلماني الاشتراكي بكل درجاته) والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل، بل بنتيجة عكس المطلوب تماماً، الإسلامية إذن هي الشرط الأول لأي مشروع للإصلاح، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان وإذا قلنا أن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنا إن المنحنى الإسلامي صمد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم، ثم ثبت هذا المنحنى، ثم نزل وأننا الآن في حالة نزول حضاري - هزيمة تكنولوجية واضحة - يجب الاعتراف بها أولاً، ثم العمل على تجاوزها ثانياً، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى وقبل ذلك سبب صعوده، لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة، هي كلمة الجهاد، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد، كواجب شرعي وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبت ثم نزل، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل، وفي الحقيقة فإن كثيراً من الأطروحات - بعضها إسلامي طبعاً - حين تتجاهل هذا البعد، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية، الإصلاح السياسي - التربية... إلخ، فإنها تكرس التخلف، لن نحقق الوحدة مثلاً، ولا الإصلاح الاقتصادي، ولا الإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا ﴿ وَٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة، الجهاد هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية وشرط كل شيء صحيح وجميل، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوق فني وأدبي فإن الجهاد هو الشرط الأول، وهذا المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً، وللحديث الشريف كذلك. يجب بالطبع إدراك بعد الهزيمة التكنولوجية، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا، وأن نوقف هذا النزول تماماً، ثم نحدث انقلاباً في المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن، يجب تقديم اجتهاد فكرى وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد.

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة، التي تقول إحداها مثلاً: إننا أمة متخلفة ومهزومة (وهذا صحيح) وإن المواجهة ليست حلاً (وهذا غير صحيح)، ومن ثم فعلينا اتباع الأسلوب الألماني أو الياباني في الإصلاح، أي ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب، فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية بل عسكرية وسياسية، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية فإنها أيضا حضارية وثقافية، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول وحتى اليوم، مروراً بالمواجهة في الأندلس والمغرب العربي (حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة) ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق

العربي الإسلامي ١٠٩٥م - ١٢٩٥م وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق، فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا، ولن يتركنا نبني ونعمر فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني أو على أي أساس، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كان لهم مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتي أو الصين بالتمدد في آسيا وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدأي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب، وهو أكبر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا وهكذا فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة.

من الأطروحات الأخرى المراوغة، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً — العربي ٧١٧ مليون دولار —، أي أصغر من رأسمال شركة مايكروسوفت مثلاً أو نوكيا للهواتف المحمولة أو دولة واحدة مثل إسبانيا، وهذا صحيح، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا نشكل له أي نوع من التهديد، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تنسف منطقهم، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل، ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ؟.. هل لتدفق البترول مثلاً ؟.. وهذا البترول مهم طبعاً، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً، إنهم يأخذون البترول وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة

إلى بعدها الاقتصادي والسياسي أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم، فهذا كلام جزئي، نعم ربما لا نشكل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة، والمنظومة الإسلامية الثقافية تمثل خطراً شديداً على المنظومة الغربية الرأسمالية لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولا هوت التحرير المسيحي، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فإن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التي أفرزت الرأسمالية ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً ليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً وبالتالي قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية، وهي ذات خطاب عالمي ثالثاً وبالتالي فهي يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية (وهم أكثرية العالم) سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة، ثم ثقافة القتال والجهاد، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر العربي والإسلامي ليس وهماً ولا خداعاً، بل إدراك مبكر أو تقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا ما سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وثم استعادة فعل الجهاد الجميل.

لماذا نقول: مشروع المقاومة؟ ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها ؟ !.. ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد، وذلك لأننا أمة

مستهدفة، والسيف فوق رؤوسنا، فهل نخدع أنفسنا مثلاً ؟.. وقد بان الأمر الآن، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين وخاصة بعد ما يسمى (بوعد بوش) الصادر مع شارون في مؤتمر صحفي ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣، وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دامغة بدون جهد !!.

وكذلك لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تماماً، حيث أنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة، بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن موالاة والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتال ولا الجهاد ولا الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل نعم هذا صحيح ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً، ولن يجدوا إن شاء الله – حتى الآن – وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية

والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله، نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين الذي جاء أيضاً في ظروف غير مواتية، ومع ذلك هز الوجود الإسرائيلي هزاً، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة في لبنان.

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية « وكل التجارب دلت على ذلك » فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، وهي سوف تحقق أولاً نوعاً من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية، ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتدمير والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا وتحويل الباقي إلى عبيد أما المقاومة فهي إما نصر وإما شهادة، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر

الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح، وعلى الأقل هناك الكرامة، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة، أي المحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد.

ولن نكون مغرقين في الوهم أو التفاؤل حين نقول أن مشروع المقاومة لن يحقق فقط العزة والكرامة لنا، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحتنا الثقافية عالمياً، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

العطش إلى النفط

ماذا تفعل أمريكا بالعالم لضمان أمنها النفطي ؟

كان ولا يزال النفط أحد أهم العوامل لتفسير الصراعات في العالم وفهم سياسات الدول وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ينبغي ألا نهمل العوامل الأخرى أو نقع في إمكانية تفسير كل شيء بالنفط وحده، فلا تزال هناك عوامل أخرى ثقافية وحضارية وجغرافية وعقائدية وغيرها تشكل عناصراً هامة من عوامل الصراعات والسياسات الدولية.

ورغم أن المؤلف « إيان رتليدج » من مدرسة التفسير النفطي للأحداث فإنه يعترف بأن النفط لم يكن العامل الأوحد، فالدول لا تذهب للحرب لسبب واحد فحسب، وحسب رأي المؤلف نفسه فإن الاستعراض الضخم للقوة العسكرية الأمريكية كان بهدف إرغام الفلسطينيين على الدخول في نوع من السلام يفضله الحلفاء الليكوديون لإدارة بوش وكان هذا أحد العوامل التي أدت إلى الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وكذلك « يضيف المؤلف » : لا يمكن استبعاد الإحباط المتنامي لنظام العقوبات الذي أضر أكثر مما نفع من قائمة الأسباب المؤدية إلى الغزو كذلك يربط المؤلف بين الحرب على العراق وغزو أفغانستان بما أسماه الحرب على الإرهاب، والتدمير الوحشي للبرجين التوأم في نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكن « يضيف المؤلف » فإنه في كل من الحالتين أي حالتي غزو العراق وقبلها أفغانستان كان الحافز يلعب على تشكيلة معقدة من القوى التحتية ذات الصلة بالنفط التي كانت قد بدأت بالفعل بشد صانعي القرار الأمريكيين لهاتين المنطقتين، ومن ثم - يرى المؤلف - أن هناك فرق بين السبب الحقيقي أو العوامل الكامنة وبين الحافز الذي كان في الحالة التي نناقشها هو الهجوم على نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ويؤكد المؤلف هذا الفارق بين السبب والحافز بقوله: « في الحرب العالمية الأولى مثلاً نستطيع أن نميز بين الحافز المتمثل في اغتيال أرشيدوق النمسا فرانز فرديناند في ٢٨ يونيو ١٩١٤ وبين التنافس الإمبريالي

والقومي الطويل، وسباق التسلح الضخم اللذين يعتبرهما المؤرخون العاملين المهيمنين الأساسيين لنشوب الحرب العالمية الأولى » .

التفسير النفطي لغزو العراق

ينحاز المؤلف بالطبع - وهذا هو هدف الكتاب أصلاً - إلى تفسير غزو العراق وأفغانستان بالرغبة الأمريكية في السيطرة على النفط، أو أن ذلك كان السبب الرئيسي، ويدحض المؤلف نظرية أن سبب الحرب كان إزالة ما فيه من أسلحة دمار شامل، أو نوع من الاستراتيجية الهجومية للحرية في الشرق الأوسط أو نشر الديمقراطية، أو أنه جزء من الثورة الديمقراطية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة، فهذه الأمور لم تكن إلا نوعاً من تعريف معين للحقيقة يمكن أيديولوجياً كان يتم ترويجه من خلال منظار أيديولوجية المحافظين الجدد التي يعتنقونها الذين كانوا بالفعل يؤمنون بذلك - أو بعضهم على الأقل - ولكن التحليل التاريخي سيظل قاصراً إذا اكتفى بتقصي الأسباب التي جعلت الأفراد بتقديرهم هم يتصرفون بالشكل الذي تصرفوا به فعلى حد قول المؤلف الإنجليزي الكبير إي إتش كار: « لا يتصرف البشر دوماً أو حتى عادة بدوافع يعونها تماماً أو يودون المجاهرة بها » .

يقول المؤلف: « لسنا بحاجة إلى سبر الأغوار العميقة لأيديولوجية المحافظين الجدد لنجد من الدلائل ما يشير إلى أن الشئون الوجهية للدولة والشركات كانت تدور حول أمر في الخليج لا صلة له البتة بأسلحة الدمار الشامل أو الحرية أو الديمقراطية، وأن التهديد المزعوم لنظام صدام حسين لم يكن سوى ذريعة ملائمة للزعماء الأمريكيين ليقوموا بخوض المعركة الأخيرة في الصراع الطويل على مدى عقود لسد الطلبات التي لا ترحم لمجتمعهم العطشان إلى النفط » .

الكتاب يقع في ٣١٢ صفحة من القطع المتوسط، ويضم مقدمة وأحد عشر باباً وقائمة بالمراجع « أجنبية بالطبع » ، ولعل مجرد رؤية عناوين الأبواب يحدد هنا موضوع وهدف

الكتاب، الأبواب هي النفط وأمريكا، سبق السيف العزل، كيف سيطرت أمريكا على الخليج، أمن الطاقة والخليج تحول الحل إلى مشكلة، محور النفط، أمن الطاقة يبدأ من الوطن، هل تكون كندا وفنزويلا والمكسيك هلال حل، هل يكون بحر قزوين وآسيا الوسطى شرق أوسط جديد، أمريكا المموترة، الأزمة الوشيكة، حرب النفط.

النفط السائل السحري

يبدأ المؤلف فصول كتابه بطرح تساؤل هو هل يمكن الاستغناء عن النفط؟ - ولماذا حظي النفط بهذه الأهمية ؟ ويجيب المؤلف على السؤال بأن النفط يعد سلعة استراتيجية لا يستطيع أي مجتمع صناعي وصل إلى درجة عالية من التصنيع من الاستمرار بدونه وأنه من الصعب جداً الاستغناء عنه إن لم يكن من المستحيل ذلك في المدى القريب والمتوسط، وأن الأمر يحتاج إلى إعادة هيكلة الاقتصاد وبتكاليف باهظة وخسارة فادحة ولوقت طويل جداً حتى يمكن الاستغناء عن النفط، ومن الناحية العملية فإن الولايات المتحدة لابد لها من ضمان توفير النفط ولو بالقوة العسكرية.

فالنفط يتفوق على جميع مصادر الطاقة المعروفة من حيث الخصائص الفيزيائية فهو يعطي طاقة أعلى في حيز أقل ويمكن تخزينه بسهولة فهو إذن حسب كلام علمي طويل للمؤلف يتفوق في المراتب الوزنية والحجمية والحقلية، إلا أنه له ميزة لا يمكن مجاراته فيها وهي ملاءمته للآلات المتحركة المستقلة. وهذه النقطة الأخيرة تفسر لماذا الجنون الأمريكي بالنفط. فالبترول إذن له خصائص فيزيائية استثنائية كمصدر للطاقة، وأن هذه الخصائص تظهر أكثر ما تظهر في الآلات المتحركة المستقلة الكبيرة.

إننا نقود سياراتنا، وسياراتنا تقود ثقافتنا

يتفوق النفط إذن على بدائل الطاقة الأخرى كالفحم والطاقة الكهربائية والطاقة النووية وغيرها، ويظهر هذا التفوق في العربات والطائرات والسيارات، فأداء هذه الطائرات

والسيارات والدبابات من حيث الحجم والوزن والسرعة والقدرات لا يمكن أن يقارن في حالة غير حالة النفط، ومن ثم فإن النفط من الناحية العسكرية والمدنية لا يمكن الاستغناء عنه في المدى المتوسط على الأقل. وبالنسبة للولايات المتحدة فإنه ليس فقط لأسباب عسكرية واستراتيجية لا بد من ضمان تدفق النفط، بل لأسباب مجتمعية داخل المجتمع الأمريكي نفسه، لقد بنت أمريكا اقتصادها الرأسمالي المزدهر على الإنتاج الضخم للسيارات وقامت بلا رحمة بتفكيك بدائل المواصلات العامة القائمة والقابلة للاستثمار وأنشأت شبكة ضخمة من الطرق عبر البلاد وتطورت ضواحي المدن الأمريكية ولم يتم إنشاء بل تعويق جميع المواصلات الأخرى غير السيارة مما أدى إلى اعتماد ملايين المواطنين الأمريكيين على سياراتهم وبدورها أحدثت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية نظاماً أيديولوجياً خاصاً بها وطموحات منبثقة عنها، وحسب تعبير الكاتب الأمريكي « كلارنس بيج » : « إننا نقود سياراتنا، وسياراتنا تقود ثقافتنا » .

وهكذا فإن اهتمام الولايات المتحدة في رأي المؤلف بالنفط، يرجع لأسباب عسكرية ولكن بالدرجة الأولى لاحتياجات الاقتصاد الأمريكي المحلي المتزايد باستمرار.

لماذا نفط الشرق الأوسط ؟

يرى المؤلف أن عدداً من حكومات الولايات المتحدة حاول الاستغناء جزئياً أو تقليل الاعتماد على نفط الخليج، عن طريق تنويع مصادر الطاقة داخل أمريكا ذاتها باستخدام الكهرباء والطاقة النووية أو بالاعتماد على مصادر بترولية لا توجد في الشرق الأوسط، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل، فما يسميه المؤلف « المجتمع المموتر » أي المعتمد على الموتور « motorlized » تزداد فيه نسبة الموترة باستمرار وهذا يعني عدم القدرة على استخدام ذلك النوع من الطاقة وكذلك فإن محاولات الحصول على نسبة أكبر من البترول من بحر قزوين والتي بدت في أواخر القرن الماضي ممكنة وصلت إلى طريق مسدود فالتوقعات المتفائلة

بوجود احتياطي كبير في تلك المنطقة انهارت وتضاءلت الآمال في أن يحل بحر قزوين محل منطقة الخليج، وكذا فإن المشاكل السياسية والعرقية حول بحر قزوين تجعل عملية نقله مكلفة وفي كل الأحوال فإن إدارة بوش وجدت نفسها مع أول عهدها أمام ضرورة الاعتماد على بترول الشرق الأوسط، وكذلك فإن كل من فنزويلا والمكسيك رفضتا لأسباب مختلفة أن يشكلا بديلين لنفط الخليج، بل ويقوم شافيز رئيس فنزويلا بدور واضح في مناهضة السياسة الأمريكية، أضف إلى ذلك أن سوق النفط العالمية سوق مفتوحة ومن ثم فإن رفع أسعار البترول في أي مكان سيرفع أسعار البترول في كل مكان، وهكذا فإن البديل الوحيد المتاح هو سماح دول الإنتاج النفطي الكبير بالاستثمارات الرأسمالية الدولية في حقولها، لرفع كفاءة وزيادة إنتاج واسعة النطاق لن تكون إمكانيات تلك الدول قادرة عليها حتى لو وافقت على ذلك، ومن ثم فإن السيطرة حتى ولو بالقوة العسكرية هو السبيل المتاح أمام الولايات المتحدة لحماية المجتمع الأمريكي من صدمات مستقبلية في موضوع النفط.

لوبي النفط:

يرى المؤلف أن كثيراً من الأمور يمكن أيضاً تفسيرها بوجود لوبي نفطي قوي وقادر على تحريك الإدارات الأمريكية ويستعرض المؤلف أمثلة لرشاوى وتبرعات وضغوط قام بها لوبي النفط داخل الولايات المتحدة بهدف ترجيح انتخاب رئيس على رئيس أو اتخاذ قرار بغزو مكان ما أو إحداث انقلاب عسكري أو السكوت على ممارسات غير قانونية داخل الولايات المتحدة نفسها يقوم بها زعماء من دول أخرى أو غيرها، ويرى المؤلف أن إدارة الرئيس بوش التي وصلت إلى السلطة في يناير ٢٠٠١ هي الأكثر خضوعاً في كل الحكومات الأمريكية لهيمنة مصالح شركات النفط والطاقة في تاريخ البلاد، وكانت شركات الطاقة الأمريكية في ذلك الوقت تريد أن تتحول كل منها إلى شركة نفط متعددة الجنسيات في نفس الوقت فشل كل من بوش وتشيني في ترويض شافيز أو زيادة إنتاج بحر قزوين، ومع تزايد

نسبة ومعدل الموترة « الاعتماد على السيارة » في الداخل الأمريكي، لاح غزو واحتلال العراق لإدارة بوش ومنظريها من المحافظين الجدد حلاً واضحاً يمكن أن يلبي في آن ما احتياجات أمن الطاقة للمواطنين الأمريكيين، والشروط التجارية لشركات الطاقة الأمريكية.

خسارة حرب البترول:

يرى المؤلف أن أمريكا قد خسرت حرب النفط، فما دام الأمن مفقوداً والتمرد متواصلاً في العراق، فإن المحاولات الأمريكية لتدعيم وتوسيع صناعة النفط العراقية مع أو بدون مشاركة شركات النفط الأمريكية قد فشلت، وأن أمريكا ستظل من ثم معتمدة على نفط المملكة العربية السعودية التي تضاءلت حاجتها كثيراً إلى دعم الولايات المتحدة الأمريكية بعد الإطاحة بصدام حسين ومن ثم فإن استجابة المملكة العربية السعودية لطلبات أمريكا ستقل كثيراً، خاصة في السماح بالاستثمارات الأجنبية على نطاق واسع في زيادة إنتاج النفط السعودي، ويرى المؤلف أنه بدون تلك الاستثمارات فإن المملكة لن تستطيع زيادة إنتاجها بالنسبة المطلوبة أمريكياً وعالمياً خاصة مع زيادة استهلاك الصين للنفط، وأن ذلك كله سيرفع سعر البترول وسيشكل معضلة كبيرة للولايات المتحدة الأمريكية في غضون عشر سنوات، يقول المؤلف: « إذا خسرت أمريكا حرب النفط، أي إذا تعين عليها مغادرة العراق وهي تجر أذيال الخيبة، أو ظلت في مكانها سنوات عديدة قادمة تحارب تمرداً ضارياً مضنياً، دون أن تجني أياً من الفوائد التي كانت تأملها في الأصل لشركاتها ومنتجيها من توسع إنتاج النفط العراقي، فإن تداعيات ذلك ستكون بعيدة الأثر » .

تقرير

أمريكا تذبح العراقيين

يمكن أن نجد أن مذبحة قد حدثت تقريباً في كل مدينة أو قرية عراقية على يد قوات الاحتلال الأمريكي أو البريطاني أو غيرهما، وقد تم الكشف عن بعض تلك المذابح والانتهاكات، ولكن غير المعروف وغير المكشوف منها أكبر بكثير جداً من المعروف والمكشوف، لدرجة أن رئيس وزراء العراق ذاته - جواد المالكي - وهو من التحالف العراقي المتعاون مع أمريكا، قال: إن عمليات القتل الأمريكي للعراقيين أصبحت بمثابة ظاهرة يومية، وأن العنف ضد المدنيين العراقيين أصبح ظاهرة روتينية يمارسها جنود الاحتلال الذين لا يحترمون الشعب العراقي، وأن هؤلاء الجنود يدهسون الناس بعرباتهم، ويقتلونهم لمجرد الشك فيهم.

ولنا أن نتصور مدى ما وصل إليه الحال من مثل هذا التصريح من رئيس الوزراء العراقي المتحالف والمتعاون والمستند أصلاً في وجوده في السلطة إلى القوات الأمريكية المحتلة.

في كل مرة يتم الكشف عن مذبحة أمريكية أو انتهاك لحقوق الإنسان يُقال: إن القوات الأمريكية كانت تبحث عن المتمردين، أو أن أهالي تلك القرية أو المدينة يأوون الإرهابيين أو الثوار أو يساعدونهم، أو أن تلك المذابح تمّت من أجل البحث أو القبض على الثوار. حدث هذا الأمر، ونفس التسويغ في مذابح الأمريكان في قرية ماي لاي الفيتنامية ١٩٦٨، وفي قلعة جانجي حين قتلوا مئات الأسرى الأفغان، وفي قندهار، في أفغانستان عام ٢٠٠١، وفي سجن أبي غريب ٢٠٠٤، وفي الرمادي، وتلعفر، والفلوجة، والحديثة والإسحاقي، والبصرة.. والقائمة تطول!

والغريب أن الصفاقة الأمريكية لا حدود لها؛ في كل مرة يتم الإعلان عن لجنة تحقيق، ومحاكمات، وتصدر إدانات يتم فيها تقديم كبش فداء، دون النظر إلى أن ذلك تم بأوامر من

مستويات قيادية عليا في الجيش الأمريكي، بل والقادة السياسيين أنفسهم، وفي كل مرة يعلن القادة الأمريكيون عن ضرورة تنظيم دورات تدريبية للجنود على أخلاقيات وقواعد الاشتباك، ومع ذلك تتكرر الحالات وتزداد انتشاراً، والأفضل طبعاً أن تنظم الأمم المتحدة دورات تدريبية للقادة السياسيين في أمريكا حول أخلاقيات احترام الآخر واستقلال الدول والشعوب، وعدم التدخل في شئون الآخرين، وما نُشِر من أنباء حول حادث أو مذبحة الحديثة يؤكد أن الأمر ليس سلوكاً فردياً، بل جريمة مؤسسة، والصحيح أنه جريمة حضارة كاملة؛ لأن هذه الجرائم الجديدة لا يمكن عزلها عن الجرائم التاريخية الممتدة في الزمان والمكان، والتي ارتكبتها أوروبا ثم أمريكا في حق المستعمرات، أو السود، أو الهنود الحمر، أو الفلسطينيين.... إلخ، مما يؤكد أننا بصدد وجود مناخ عنصري داخل الحضارة الغربية يقود إلى مثل هذه الجريمة، ويسوغها أحياناً ويتغافل عنها أحياناً أخرى، أو يقدم كبش فداء صغير لنسيانها أو تخفيف الضغط حولها، أو عدم وصول الشعوب إلى حقيقة أن الطريق الوحيد للتحرر هو المقاومة، وليس البحث عن إمكانية وجود ضمير في الغرب.

د/ محمد مورو

العراق سياقات الوحدة والانقسام

ولدت فكرة هذا الكتاب كما يقول المؤلف د. بشير موسى نافع وهو فلسطينى فى العقد السادس من العمر، حاصل على دكتوراه فى التاريخ، وأحد أهم المفكرين الفلسطينيين المعاصرين، وله إسهام في الحركة الفكرية والسياسية الفلسطينية والعربية والإسلامية في الشهور القليلة التى سبقت غزو العراق في مارس ٢٠٠٣، وقد لاحظ المؤلف كيف بدأ الخطاب السياسي والأيديولوجي للقوى المتدافعة في التحول إلى تاريخ رسمي جديد للعراق والعراقيين، وكيف غاب الكثير من حقائق تاريخ العراق وشعبه حتى عن بعض المختصين الذين تصدوا لتوجيه السياسة وإيضاح تطورات الأحداث لعموم المتابعين لها، كانت فكرة المؤلف ضرورة العمل على نص علمي يتناول القضايا المطروحة حول تاريخ العراق وشعبه، نص يستطلع الحاضر من خلال التاريخ، ويستطلع التاريخ بهدف استبصار بعض جوانب الحاضر.

وقد أنجز المؤلف هذا الكتاب خلال العامين التاليين لاحتلال العراق، وهو يعترف أن الباحثين يبددون عملهم عادة بفكرة مسبقة، ولكن النتائج التي توصل إليها في هذا الكتاب لم تكن أبداً في الحسبان على حد قوله، بعض الأفكار المسبقة تعرضت للتعديل، والقليل منها بقى بالفعل، وأن جل الأفكار التي يضمها هذا الكتاب هي نتاج التقصي والبحث، ويعترف المؤلف أيضاً أن هذا العمل كتب في ظروف خاصة وتحت تأثير أحداث معينة، أحداث كبرى تتعلق بالبلد والشعب محل البحث والكتابة، ولأن التاريخ عملية مفتوحة الآفاق فإن الكتابة التاريخية تبقى دائما أسيرة الواقع، كما هي نتائج المادة المتوافرة حول الموضوع وتحيزات الباحث الواعية وغير الواعية.

ومن البديهي أن الباحث هنا جزء من هذه الأمة، ومهتم بأحوالها، وله اهتمامه الشخصي بالعراق وفلسطين وكذا علاقاته المتنوعة داخل معظم الطيف العراقي، وهكذا فهو حاول

قدر الإمكان طرح أسئلة أكثر من تقديم إجابات خاصة أن هذا الكتاب جاء في فترة مشحونة بالعواصف والصراعات السياسية، بالبرامج والأهداف والعلاقات والولاءات المعروفة وغير المعروفة، الظاهرة والمستبطنة.

ويقول المؤلف: إن الكتاب إذا كان يثير جدلاً فهو يستهدف التصدي للمطلقات الطائفية والعرقية، وبالتالى لتوظيف هذه المطلقات فى النظر لعراق ما بعد الغزو والاحتلال، وكذلك التصدي للآثار التى تتركها الأوضاع العراقية على الساحة العربية والإسلامية في عمومها، ولا يأتي هذا التصدي من باب الخطاب السياسي أو الوعظي بل من باب إعادة النظر في العلاقة بين الواقع بتنوعه وتوتره والتاريخ بتعقيداته وقواه وبوتقته الماثلة.

يتكون الكتاب من تمهيد ومقدمة وبابين اثنين كبيرين هما السنة والشيعة فى تاريخ العراق، وعروبة العراق ثم خاتمة، والكتاب يضم عدداً كبيراً من المراجع والهوامش الأجنبية والعربية، وبه توثيق جيد وعلمي أضاف للكتاب الكثير من القوة والقيمة العلمية والتاريخية، ولكن الكتاب يفتقر إلى العناوين الرئيسية والجانبية - وهذا عيب بالطبع يتعب الباحثين والقراء - وإن كان المؤلف قد استعاض عن ذلك بالترقيم، واقتصر الكتاب من ثم على بابين رئيسيين فقط رغم أنه كان من الممكن وضع عناوين أخرى داخل هذين البابين، ومن الطبيعي والحالة هكذا أن يكون الكتاب بلا فهرس على الإطلاق، وهو عيب آخر لاشك فيه، سواء كان ذلك نتيجة قلة العناوين أو كان سهواً من المؤلف أو الناشر.

يتعرض الكتاب إلى قراءة التكوين العربي - الإسلامي لشعب العراق، وعلاقته بمسألة الهوية، وموضوع البحث هو العراق كوطن، والعراق العربي على وجه الخصوص بعناصره البشرية وعشائره وتوزيع هذه العشائر داخل الجغرافيا العراقية وتفرعاتها والأثر الذي تركته موجات الهجرة العشائرية في تأسيس العراق وعروبته والحفاظ عليه، كما يتناول الكتاب جذور التنوع الإسلامي الطائفي في العراق، وعلاقته التاريخية بين السنة والشيعة، وعلى رؤية

المسلمين السنة والشيعة لبعضهم بعضاً، والكتاب بالطبع ليس دراسة لتاريخ العراق بالمعنى التقليدي للتاريخ العام لبلد ما، بل هو دراسة للسياق التاريخي الذي يكون فيه العراق كما نعرفه اليوم، أو كما نظن أننا نعرفه، والكيفية التي تشكلت فيها مواريث الهويات محل الجدل في عراق مطلع القرن الحادي والعشرين.

السنة والشيعة في تاريخ العراق

يتناول الباب الأول من الكتاب تاريخ السنة والشيعة فى العراق، وهو باب طويل غير مقسم إلى عناوين جانبية، وبه عدد لا بأس به من النتائج المهمة التي ينبغي رصدها، وقد تتبع المؤلف من خلال جهد علمي كبير تاريخ نشأة كل من المذهبين السني والشيعي عموماً، وتطوراتهما في العراق، وخاصة المذهب الشيعي، ويرى المؤلف أن العراق كان هو الساحة التي تبلورت فيها رؤية أهل السنة والجماعة، كما كان أيضاً البوتقة التي تفاعلت فيها الأحداث والأفكار التي أدت إلى نشوء التشيع الاثني عشري.

ويرى المؤلف أن المذهب السني لم ينشأ في مواجهة التشيع، وأن المذهب الاثني عشري نشأ في القرن الرابع الهجري، وأن السنة نظروا لأنفسهم كحاضنة عريضة للإسلام لا كطائفة، ولم يظهر السنة شعوراً طائفياً دفاعياً إلا عندما داهمهم الخطر والاعتداء، ويرى المؤلف أن فرقة أو تياراً فكرياً باسم الشيعة الاثنى عشرية لم يكن موجوداً في القرون الثلاثة الأولى، لقد وجد التشيع كتوجه سياسي أو تعاطف منذ الفتنة الكبرى بالطبع، ولكن هذا التوجه والتعاطف كان مجرداً من المحتوى الأيديولوجي واضح المعالم، المحتوى الكافي للدلالة على فرقة إسلامية بعينها.

ويرى المؤلف كذلك أن العلاقات السنية الشيعية الاثنى عشرية لم تشهد صراعاً كذلك الذي شهدته علاقة السنة بالخوارج مثلاً، أو الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا الحديثة، وساعد على تأكيد العلاقة العادية بين السنة والشيعة الاثني عشرية أن كلاً من الفقه السني

والشيعي انتهى عمليا إلى رفض الخروج بالسيف على الحاكم المسلم، وأن الفاصل الطائفي أخذ في التجلي والتكرس بين الجبهتين ثم تحول إلى حالة من حرب الدول مع صعود الدولة الصفوية، ومن ثم الصراع العثماني - الصفوي، ودرس المؤلف أثر ما أسماه بالتشيع الصفوي على بنية التشيع والعلاقات السنية - الشيعية.

ويرصد المؤلف كيف أنه في حالات المد الصفوي، كان يتم الاعتداء على المساجد السنية وقتل العلماء والولوغ في دماء السكان السنة بلا حساب، وقد رصد المؤلف حالات كثيرة محددة ووثقها تاريخياً وفى المقابل يرى المؤلف أن السلوك العثماني كان على العكس سلوكاً متسامحاً بل أحيانا يعتبر نفسه مسؤولاً عن المذهب الشيعي على نفس القدر من المذهب السني.

عروبة العراق

في الباب الثاني والأخير من الكتاب والذي جاء بعنوان « عروبة العراق » يتتبع المؤلف عروبة العراق، سواء قبل الإسلام أو بعده، وكذلك الهجرات العربية التي ظل العراق يستقبلها باستمرار، ويقول المؤلف: « أن الذي ساعد على تعرب العراق السريع أن أبوابه ظلت مفتوحة لهجرات متجددة من الجزيرة العربية، وأن انفتاح العراق الجغرافي على الجزيرة العربية وتنوع القبائل التي شاركت في موجة الفتح الأولى، إضافة إلى حركة التوسع الإسلامي باتجاه شمال وشمال شرق العراق، كانت كلها عوامل مهمة في استمرار التدفق العربي على بلاد الرافدين، وأن تعرب العراق كان في جوهره حركة تاريخية متعددة الجوانب، تداخلت فيها تقاليد الموالاة القبلية بالهجرات من الجزيرة العربية، بسلسلة من الأحداث السياسية الفاصلة، وأن عروبة العراق التي بدأت بالوجود العربي قبل الإسلام في حوض الفرات وتأكدت بمرور القرون التالية لا يجب أن ينظر إليها من المنظور العرقي الحصري لثقافة القرن العشرين الحصرية، كانت عروبة العراق جزءاً لا يتجزأ من المرجعية الإسلامية

السائدة، التي كانت عربية الثقافة والمناخ بالرغم من أن العراق أصبح حاضنة لأعراق متعددة، مسلمة وغير مسلمة، ومن حكام وعلماء وجند ورجال دولة، بل وعشائر راحلة ومستوطنة وأن الفضاء العراقي كان ساحة رئيسية لتعريب الأكراد والتركمان والفرس والشركس » .

ويطرح المؤلف رأياً مهماً في إطار الحركة القومية العربية والكردية والفارسية وغيرها، فهو يرى أنها لم تأخذ في التعبير عن نفسها بتعبيرات عرقية حصرية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، بل إن الإحساس القومي على القرار الأوروبي لم يظهر في المنطقة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، ولم يكن مستغرباً في مطلع تحول العروبة إلى حركة قومية سياسية إبان الحرب العالمية الأولى، أو في ظل الدولة العراقية الحديثة في عهدها الملكي أن تنشط في الأوساط القومية العربية عناصر كردية أو تركمانية تعربت منذ جيل واحد أو جيلين على الأكثر.

ويرى المؤلف أن من الأشياء التي ساهمت في تفاقم المسألة الكردية هو تورط القوميين العرب في نوع من العلمانية، وكذلك تورط القوى القومية الكردية في الصراعات الإقليمية والدولية، وينتقد المؤلف السياسات والتوجهات القسرية والهيمنة القائمة على تجاهل المواريث التاريخية وهي لن تؤدي إلا إلى تقويض استقرار العراق وتقويض استقرار جواره على حد سواء، وفي نفس الوقت يلفت المؤلف نظر القارئ إلى أن تصوير نظام البعث على أنه نظام حكم عربي سني انتهج سياسة اضطهاد منظمة للشيعة والأكراد باعتبارهم شيعة وأكرادا هو تصوير غير صحيح، لأن عنف نظام البعث في مواجهة خصومه في المناطق الكردية والشيعية ليس بحد ذاته دليلاً على طائفيته، لاسيما أن نظام البعث لم يتورع عن استخدام عنف مشابه ضد منطقة عربية سنية كالرمادي عندما استشعر بوادر تمردها في منتصف التسعينيات.

ويخلص المؤلف إلى حقيقة مهمة مفادها: « أن موقع العراق الجيوبوليتيكي حتى بعد ولادة الدولة الحديثة ورسم حدودها الدولية، ربط بين مصيره ومصير جواره العربي والإسلامي، وإن استقرار العراق ورخائه مؤشر على استقرار المنطقة ورخائها، كما أن انقسام العراق وانحطاطه مؤشر على انقسام المنطقة وانحطاطها » .

تأملات

تهويد القدس والإفساد الإسرائيلي الأول

تحتل القدس مكانة هامة في الوجدان العربي والإسلامي، فالمسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين، والرحال لا تشد إلا إلى ثلاث.. المسجد الحرام، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس، والقدس أرض مباركة هي وما حولها أي كل فلسطين.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]

وهكذا فإن مصير القدس وما حولها أي كل فلسطين المحتلة أمر يخص كل العرب والمسلمين في كل مكان وزمان، وبالتالي فليس من حق حكومة ما أو سلطة ما أو حتى جيل كامل ما أن يبت في مصير القدس أو يساوم على شيء منها، فيفرط في حقوق لا يملكها وحده، ولا يملكها حتى جيله بكامله بل تخص كل الأجيال القادمة..

كانت القدس وفلسطين كلها محوراً للصراع المتد في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وحول القدس دارت معارك وستدور للسيطرة عليها باعتبارها رمزاً لهذا الصراع وتجسيداً له.

ومن الناحية التاريخية فإن القدس التي يقدر المؤرخون عمرها بحوالي خمسة آلاف عام، والتي أسسها اليبوسيون الذين نزحوا من الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد، ثم تتابع على حكمها العرب والعبرانيون والكنعانيون والرومانيون ثم العرب المسلمون، وفي الحقيقة فإن الزعم اليهودي بحقوقه في القدس أمر لا تسنده وقائع التاريخ ولا النص الديني أيضاً، ذلك أن الحكم اليهودي للمدينة والذي استمر فقط حوالي ٧٠ عاماً في زمن نبي الله

داود وابنه نبي الله سليمان عليهما السلام، وبالطبع فإن اليهود الآن ليسوا هم ورثة داود وسليمان، لأن المسلمين أولى بداود وسليمان من اليهود على أساس أن الإسلام هو الدين الخاتم، وأنه لو بعث داود وسليمان عليهما السلام من قبرهما، فلن يملكا إلا الدخول في الإسلام، ولأن اليهود قد فقدوا الحق في وراثة أنبيائهم.. لأنهم انحرفوا عن الطريق وخانوا العهد وقتلوا الأنبياء فاستحقوا لعنة الله تعالى وغضبه عليهم، كما أن يهود اليوم ليسوا أبناء يهود بني إسرائيل بل هم من يهود الخزر كما أثبت ذلك أكثر من باحث تاريخي موثوق ومرموق، ثم إذا حتى أسقطنا كل تلك الأسانيد - وهي هامة جداً - فما قيمة ٧٠ عاماً أمام آلاف الأعوام التي ظلت فيها القدس عربية، سواء قبل ظهور الإسلام أو بعده أو على مستوى تأسيس المدينة ذاتها، وتاريخ المدينة بعد فتحها في عهد عمر بن الخطاب الذي ذهب بنفسه لاستلام مفاتيحها، وهذه حالة خاصة بالقدس تعبر عن أهميتها لأن عمر لم يذهب لاستلام أي مدينة مفتوحة غير القدس وكانت القدس في ذلك الوقت خربة فقام المسلمون بتعميرها، وإعادة بناء بيت المقدس الذي كان مهدوماً في عهد عمر بن الخطاب وقد شهدت مدينة القدس اهتماماً مستمراً من المسلمين في مختلف الحقب، فكانت بيعة الخليفة الأموي تتم في القدس كما اهتم الأمويون بتعمير المدينة وتشجيع حركة العلم بها وكذلك فعل العباسيون الذين تركوا آثاراً كثيرة في القدس يحاول اليهود طمسها الآن لتغيير هوية المدينة، كما كان للفاطميين والسلاجقة والأيوبيين آثاراً هامة في المدينة، وعندما سقطت القدس في أيدي الصليبيين لمدة مائة عام، ثم أعاد صلاح الدين الأيوبي فتحها بذل جهوداً كبيرة لإعادة الطابع العربي الإسلامي للمدينة بعد أن حاول الصليبيون طمس هذا الطابع.

ثم جاءت الخلافة الإسلامية العثمانية فحكمت القدس ٤٠٠ سنة إلى أن سقطت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ١٩١٨ وبدأت المؤامرة لتسليم فلسطين إلى اليهود الصهاينة.

الصراع على القدس وفلسطين كلها، صراع تدخل فيه العوامل السياسية مع العوامل

الدينية والتاريخية، وإذا كانت إسرائيل بالنسبة للغرب هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي على المنطقة فإنها أيضاً بالنسبة لتفسير مسيحي معين (بروتستانتي) نوع من التمهيد لظهور المسيح المزعوم في نظرهم الذي سيقضي على إمبراطورية الشر (المسلمين) في معركة هرمجدون وهي بالنسبة لليهود تنفيذ للأسطورة المزعومة عن وعد إلهي لأجدادهم !

وهي بالنسبة للمسلمين أرض الإسراء - وأولى القبلتين وثالث الحرمين وحق طبيعي لأنهم هم مؤسسو المدينة، وظلت المدينة جزءاً منهم وهم جزء منها لآلاف السنين، بل وينظر المسلمون للصراع على أنه صراع حضاري ممتد في التاريخ والجغرافيا، وأنه على أرض فلسطين سيحسم الصراع فإما إبادة الحضارة الإسلامية وإما فتحاً جديداً لعهد الإسلامية العالمية الثانية والقضاء على الاستكبار العالمي وإنهاء الظلم والنهب والقهر الذي مارسته وتمارسه الحضارة الغربية - أمريكا آخر صورها - على العالم.

ومن ناحية النص الديني الإسلامي، فإن المسلمين متأكدون من أن النصر آت لا ريب فيه وفقاً للآية القرآنية ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٤ – ٧].

ويميل المفسرون في مجملهم إلى أن الظهور الإسرائيلي الحالي في فلسطين هو تصديقاً للآيات الكريمة، وهو يمثل الإفساد الثاني لبني إسرائيل وأن نهايتهم هي الدمار كما تقرر الآيات ولكننا نعتقد – والله أعلم – أن هذا الإفساد والعلو الإسرائيلي هو الإفساد الأول لهم، ولأننا لا يمكننا اعتبار علوهم أيام داود وسليمان إفساداً، لأن داود وسليمان كانا يطبقان شرع الله - أي الإسلام الذي جاء به كل الأنبياء - وبالتالي فلم يحدث علو وإفساد معاً لبني

إسرائيل إلا هذه المرة، وبالتالي فهو الإفساد الأول ونهايته كما تقرر الآيات، نهاية منكرة على يد عباد الله أي المسلمين بأسهم شديد على طريقة العمليات الاستشهادية وعلى كل حال فسواء كان هذا هو الإفساد الأول أو الثاني أو أي إفساد فنهايته محتومة والنصر لنا بإذن الله تعالى والآيات الكريمات تختتم بوعد مطلق بأنه في كل إفساد ستكون نهايته منجمة إن شاء الله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٨]، أي إذاتكرر الإفساد لأكثر من مرتين وإن عدتم عدنا وتكررت نفس النهاية لكم.

هذا النص الديني الذي شكل الوجدان والرؤية الإسلامية يحتم على المسلمين والعرب بالتالي التمسك بتحرير كامل التراب الفلسطيني (القدس وما حولها) وإنهاء العلو والإفساد الإسرائيلي، وأن هذه هي مسئولية المسلمين جميعاً بجميع طوائفهم ومذاهبهم بل وأجيالهم المختلفة وبالتالي فإن المسعى الدبلوماسي نحو ما يسمى بعملية السلام برمتها مسعى غير شرعي، واقتصار المطالب العربية الحكومية أو مطالب السلطات الفلسطينية على مجرد التمسك بالقدس الشرقية دون القدس الغربية هو أمر غير شرعي أولاً، ولا يحق لهم ثانياً لأن هذا حق كل العرب والمسلمين حكاماً ومحكومين، وأيضاً حق الأجيال الإسلامية القادمة.

في مقابل ذلك فإن إسرائيل تسعى إلى طمس معالم هوية القدس بل وفلسطين كلها، وتتمسك بأن القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل وتسعى أيضاً إلى وضع حقائق على الأرض تجعل هذا الأمر أمراً واقعاً.

ويأتي الاستيطان على رأس التكتيكات الصهيونية في هذا الصدد – كذلك الهجرة ثم طرد العرب وطمس معالم الهوية العربية للمدينة وغيرها من الأساليب الصهيونية لفرض أمر واقع.

ويمكننا أن نقارن بين عدد اليهود إبان الحكم العثماني في القدس، أي قبل بداية الاستعمار الأوروبي الذي مكن لهم في القدس وغيرها عن طريق الهجرة وبين عددهم الآن لنرى مدى

نجاح ذلك المخطط فقد كان عدد اليهود في القدس إبان الحكم العثماني ٣٠٠ عائلة يهودية فقط ثم قفز إلى ٣٠٠٠ آلاف يهودي عام ١٨١٩ ثم إلى ٢٠ ألف يهودي عام ١٨٩٠ من أصل ٤٥ ألف من السكان، ووصل سنة ١٩٤٧ إلى ١٠٠ ألف يهودي مقابل ٦٥ ألف عربي، ثم أصبح العدد الآن ٢٠٠ ألف يهودي في مقابل ١٥٠ ألف عربي، وتسعى إسرائيل إلى زيادة عدد اليهود في القدس عام ٢٠١٠ إلى ٧٥٠ ألف يهودي في إطار مخطط القدس اليهودية الكبرى.

ومن الناحية السياسية فإن إسرائيل استطاعت أن تسيطر على القدس الغربية بعد حرب ١٩٤٨ أي حوالي ٨٠٪ من مساحة مدينة القدس وفي أعقاب ذلك صدر قرار إسرائيلي بتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٥٠ باعتبار هذا الجزء عاصمة لإسرائيل وتم نقل الكنيست إليه، وفي عام ١٩٦٧ تم احتلال باقي المدينة أي القدس الشرقية التي تضم المقدسات الإسلامية والمسيحية، وأصدرت إسرائيل قراراً بتوحيد القدس ٢٨ / ٦ / ١٩٦٧، ثم صدر قرار باعتبار القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل وتم الضغط على الحكومات في مختلف بلاد العالم لنقل سفاراتها إلى القدس وقد تمسكت إسرائيل في مفاوضات السلام بهذه النقطة ولم تقبل أبداً مناقشتها، فهي إما تتمسك بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، أو تؤجل الحديث عن مستقبل القدس في ظل السلام إلى المرحلة النهائية وفي الحقيقة فإن مسألة القدس كانت من المسائل التي لا يختلف عليها مختلف الأحزاب والقوى السياسية والحكومات المتعاقبة في إسرائيل، فسواء كان العمل أو الليكود هو الذي يحكم فإن الموقف لم يتغير وفي الواقع فإن إسرائيل تسعى للسيطرة الكاملة على فلسطين كلها من خلال الزحف بالمستوطنات لتحقيق أكبر قدر من السيطرة والأمن في نفس الوقت، وتحويل الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة إلى مجرد جزر منفصلة تحت السيطرة على طريقة جنوب إفريقيا، وقد استطاعت إسرائيل أن تبني حتى عام ١٩٩٥ حوالي ٢١٠ مستوطنة تضم ٣٠٠ ألف مستوطن في الضفة وغزة والجولان.

وفي إطار الاستيطان الصهيوني، حظيت القدس بالنصيب الأكبر والأهم، بحيث يصبح من المستحيل تقسيم القدس أو عودتها إلى العرب وبالتالي تصبح عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل، فبدأت إسرائيل تقيم المستوطنات في القدس بحيث تغرق الوجود العربي فيها في بحر من اليهود وتقطع كل صلة لهم بما حولهم من العرب الفلسطينيين وتقوم إسرائيل بمنع العرب من البناء لأسباب مختلفة ومختلقة، كما تسعى لطردهم، ومنع عودة من غاب منهم، وتصادر الأراضي باستمرار بحجج مختلفة، كما تقوم إسرائيل بمحاولة طمس معالم المدينة الإسلامية عن طريق هدم الآثار الإسلامية بحجج مختلفة والتخطيط لهدم المسجد الأقصى بحفر أنفاق تحته تؤدي إلى سقوطه في النهاية كما أنها أوعزت إلى بعض المتطرفين بإحراق المسجد الأقصى عدة مرات تحت ذريعة أنهم مجانين !

وتفعل إسرائيل نفس الشيء مع الآثار المسيحية في المدينة ثم تقوم بتغيير بعض المعالم الأثرية للمدينة ثم إدعاء أنها آثار يهودية.

وتسعى إسرائيل في النهاية إلى إقامة ما يسمى مشروع القدس الكبرى لتوسيع حدود مدينة القدس بحيث تمتد إلى رام الله شمالاً وإلى بيت لحم جنوباً، بحيث يكون عدد اليهود في هذا المشروع حوالي ٧٥٠ ألف نسمة في القدس الكبرى !

د/ محمد مورو

علاقة المقاومة بالبنية الاجتماعية

إذا تتبعنا حركات المقاومة العربية والإسلامية في التاريخ المعاصر نكتشف حقيقة واضحة للعيان وهي أن الحكومات والدول والجيوش النظامية فشلت دائماً في مواجهة الغزو الخارجي في حين نجحت المقاومة الشعبية في ظروف معينه، وهذه الظروف تحديداً هي ما ينبغي معرفته ودراسته حتى ننجح في مواجهة هذا التحدي، وهو التحدي الذي نعاني منه منذ قرنين على الأقل وبصورة مستمرة، السبب في فشل الجيوش النظامية والحكومات والدول ونجاح المقاومة الشعبية في ظروف معينه، هو أننا أولاً أمة ذات طبيعة خاصة، وأنها أمة ذات ثقافة معينه وهي الثقافة الإسلامية ومن ثم فإن هذه الأمة والجماهير لن تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي، وبما أن الحكومات والدول والجيوش لم تكن تنطلق في عملية المواجهة من خلال المنظومة الإسلامية بسبب قيام أنظمة حكم ودول تتبنى مرجعيات أخرى مخالفة أو ليست نقية تماماً بالنسبة لهذا الوجدان الإسلامي فإن الفشل هنا بديهي، فكيف نواجه منظومة حضارية تغزونا بجيوشها وبثقافتها وحضارتها بقيم وثقافات ومرجعيات مستمدة من نفس الأرضية الحضارية المعادية أو لا تخالفها تماماً لأن أي قدر من الميوعة وعدم الحسم في رفض المنظومة المعادية يعني مباشرة أننا أمة تمت هزيمتنا قبل أن تبدأ المعركة.

ولكن هذا بالطبع لا يكفي لتفسير الظاهرة ولا بد من البحث عن أسباب أخرى لظاهرة نجاح عمليات المقاومة في ظروف معينة وفشل الحكومات والجيوش في مواجهة الغزو الأجنبي.

لدينا العديد من التجارب الناجحة في حركات المقاومة، المقاومة الشعبية المصرية ضد الحملتين الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١ م والإنجليزية « حمله فريزر » ١٨٠٧م مع ملاحظة أنه على حين قاومت كل قرية ومدينة في مصر بما فيها القاهرة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١م وكذا قاومت القوى الشعبية حملة فريزر بعد فشل المماليك في مواجهة الفرنسيين عام ١٧٩٨

وهزيمتهم في معركة إمبابة، وكذا غياب الحكومة « حكومة محمد علي » عن عملية المواجهة ضد حملة فريزر ١٨٠٧ لأنه كان بالصعيد مع جيشه يطارد فلول المماليك المعارضين لحكمه ... فإنه في عام ١٨٨٢م عندما دخل الجيش الإنجليزي القاهرة لم تنطلق عليه رصاصة واحدة بعد هزيمة جيش العرابيين في التل الكبير !!

وهناك أيضاً تجربة المقاومة الشعبية في الجزائر وتونس والمغرب وفلسطين وسوريا والشيشان واندونيسيا وغيرها، وهناك المقاومة الشعبية المصرية في السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامة سنة ١٩٧٣م وكذا المقاومة الشعبية في لبنان « حزب الله » وتحقيقها انتصارين كبيرين على إسرائيل عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ وهناك حركات المقاومة الفلسطينية « حماس، الجهاد وغيرها » .

وإذا درسنا البنية الاجتماعية التي أدت إلى ظهور ونجاح تلك الحركات نجدها تتلخص في عامل رئيسي هو ضعف الحكومات ووجود بنية اجتماعيه أصلية أقوى من الدولة، مع وجود عوامل أخرى طبعاً ولعل هذا العامل الرئيسي هنا هو موضوع بحثنا.

****

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان هناك بنية سياسية واجتماعيه واقتصادية معينة كان هناك السلطان الذي يعين الوالي والوالي يحكم عن طريق الديوان والمماليك، ولكن هؤلاء جميعاً كانوا في القلعة يديرون الأمور السياسية والعسكرية وجمع الضرائب دون تغول ولا نفوذ حقيقي أكثر من ذلك على الجماهير، وفي المقابل كان هناك الأزهر، وعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصغار، وهؤلاء كانوا يديرون الحياة الاجتماعية في المدن والقرى وكل مكان، وكان هناك ارتباط عضوي بينهم وبين الجماهير، فهم يفتون لهم في الأمور الدينية والدنيوية ويحكمون بينهم ويديرون مجتمع أهلي كامل شبه مستقل سياسياً واقتصادياً عن الحكومة، وحتى الحكومة ذاتها كانت تلجأ لعلماء الأزهر في معظم المشاكل الحادثة، وإذا حدث احتكاك

بين الجيش « المماليك » وبين الأهالي فإن علماء الأزهر هم من كان يقود الأهالي لاستعادة الحقوق وتحقيق نوع من التوازن، أو حتى تهدئة الأهالي والوساطة لدى الوالي.

وكان الأزهر مستقلاً في أموره الاقتصادية عن الدولة ومن ثم كان حراً في قراره ولم يكن مسلوب الإرادة تجاه السلطة كان هناك نظام الأوقاف التي يديرها العلماء والأهالي أو يمكن أن نقول الميزانية المستقلة، من ناحية ثانية كان هناك الطوائف والحرف، ولكل حرفة شيخ أي نقابة ورئيس نقابة، نقابة العطارين والنحاسين والحدادين والنجارين ... بل وهناك طائفة الأشراف ونقيب الأشراف وكل هؤلاء يديرون أعمال الأهالي بصورة مستقلة أو فيها قدر كبير من الاستقلال عن الحكومة، وكان هناك نمط من الاقتصاد شديد الاستقلال فهناك الزراعة وهناك الحرف المرتبطة بالخامات المحلية والخبرات المحلية والاستهلاك المحلي، كصناعة الفخار والحصر، والجريد والأخشاب ... إلخ.

ومن ثم فإن سقوط حكومة المماليك بعد معركة إمبابة سنة ١٧٩٨ لم يؤد إلى انهيار المجتمع، لأنه كان أقوى من الحكومة ويستطيع أن يعيش معها أو بدونها، ومن ثم استمرت المقاومة الشعبية في كل مكان في مصر ضد الوجود الفرنسي، وشارك فيها كل الناس بقيادة علماء الأزهر، شارك فيها الفلاحون والحرفيون والأشراف وعلماء الأزهر، والتجار وسجلت تلك المقاومة أروع سطور البطولة والفداء والسخاء ونجحت في هزيمة الحملة الفرنسية واندحارها وخروجها عام ١٨٠١، وأفرزت الحركة الشعبية قيادتها الطبيعية من علماء الدين والتجار والأشراف من عمر مكرم، الشيخ السادات، السيد أحمد المحروقي كبير التجار، والشيخ القويسني، والجوسقي ... إلخ.

نفس الأمر حدث عام ١٨٠٧ حين كان محمد علي غائباً في الصعيد يطارد المماليك وقامت القوى الشعبية بتجهيز المقاومة والمتطوعين من الأهالي بقيادة السيد عمر مكرم حيث ذهبت إلى رشيد والحماد وبمساعدة أهالي رشيد والحماد تم دحر حملة فريزر ١٨٠٧م.

وهكذا فقد نجحت المقاومة الشعبية في تحقيق انتصارين في أقل من عشر سنوات، على أقوى قوتين في العالم في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا بل وعلى أبرع القواد العسكريين في ذلك الزمان بل وربما في تاريخ فرنسا وإنجلترا، وهما نابليون بونابرت، والجنرال فريزر، وبديهي أن الإمكانات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بالمرة فالقوات الفرنسية والإنجليزية كانتا تملكان أحدث وسائل القتال من مدافع وبوارج وأفضل الجنود المدربين فضلاً عن أحدث التكتيكات العسكرية.

****

في عام ١٨٨١ اندلعت الثورة العرابية وهذا بفضل جهود كثيرة قام بها علماء الدين وخاصة عبد الله النديم ورغم أنها كانت ثورة شعبية إلا أنها تحولت إلى حكومية برئاسة محمود سامي البارودي، وكان عرابي وزيراً للحربية وقائداً للجيش وبديهي أنها طالما كانت المعركة بين قوتين عسكريتين منظمتين، فإن الفوز يكون لصاحب الإمكانيات العسكرية الأكبر ولأننا منذ عدة قرون أضعف من عدونا عسكرياً وتكنولوجياً فإن استخدام الجيش والدولة في المواجهة يؤدي إلي نتيجة حتمية وهي الهزيمة، وقد حدث هذا دائماً وآخر ما حدث مع جيش صدام حسين رغم كونه جيش قوي يتمتع بقياده حازمة، في حين نجحت المقاومة العراقية في تعطيل المشروع الأمريكي وتكاد تنزل الهزيمة بالجيش الأمريكي.

والذي حدث أنه بعد هزيمة الجيش المصري بقيادة عرابي في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ تحركت القوات الإنجليزية الي القاهرة ولم تحدث مقاومة شعبية كما حدث في مواجهة الحملتين الإنجليزية والفرنسية سابقاً.

وهذا يرجع إلى أن محمد علي كان قد نجح في ضرب البنية الاجتماعية المتميزة والتي تفرز المقاومة، كان محمد علي قد نجح في إقامة دولة عظيمة جداً وقويه جداً جيش كبير وأسطو ل ضخم وصناعات حربيه واستراتيجية، ولا بأس في كل ذلك ولكنه كان على حساب البنية

الاجتماعية الأهلية المستقلة، لقد ربط كل شيء بنفسه ومشروعه وجيشه أصبح العامل والخبير والمهندس في علاقة مباشرة مع الدولة والإدارة، فهي التي تدير المصانع وتنشئ الجديد منها، وهي التي تدفع المرتبات وهي التي تأخذ الإنتاج ومن ثم فإن البنية الاجتماعية المهنية أصبحت جزءاً من الدولة ولا تستطيع أن تعيش بدونها، نفس الأمر بالنسبة للزراعة، فبدلاً من زراعة الحبوب والخامات التي يتم تصنيعها محلياً ومن ثم تحقيق نوع من الاستقلال الاقتصادي فقد قام محمد علي بتأميم الزراعة، وتحديد ما يتم زراعته وخاصة المحاصيل النقدية كالقطن والكتان ...إلخ، المهم في النهاية أن الفلاح أصبح يعتمد في حياته على ما تعطيه له الدولة ومن ثم فإن المجتمع الأهلي في القرية قد ضعف إلى حد كبير، نفس الشيء يقال عن التجارة الداخلية والخارجية التي احتكرتها دوله محمد علي ومن ثم لم يعد التجار يمثلون الممول الطبيعي للمقاومة كما حدث في إبان الحملة الفرنسية « السيد أحمد المحروقي مثلا » أكثر من هذا فإن محمد علي ضرب مؤسسة الأزهر و نقابة الأشراف وصادر الأوقاف، وأصبحت ميزانية الأزهر ومعاش علماء الأزهر من الدولة، وطارد الزعماء الوطنيين مثل عمر مكرم وأنهى من ثم أي زعامة اجتماعية أو سياسية أو دينية خارج مؤسسة الدولة وصحيح أن محمد علي قد بنى دوله قويه جدا ولكنه أضعف المجتمع جداً، ولما انهزم مشروع محمد على في عام ١٨٤٠ وما كان له إلا أن ينهزم لأن الدولة الغربية ستظل الأقوى عسكرياً مهما فعل محمد علي ومن ثم سقط المشروع وضعف المجتمع، فلما جاءت القوات البريطانية عام ١٨٨٢ لم يكن هناك مجتمعاً قادراً على إفراز مقاومة قادرة على هزيمة الغزو، وبدأت الحركة الوطنية المصرية تعيد بناء نفسها بقيادة مصطفى كامل وتحاول ترميم المجتمع بإنشاء النقابات والتعاونيات « عمر لطفي رائد النقابات والتعاونيات » في بداية القرن العشرين، إلا أن ما تم ترميمه من المجتمع لم يسمح إلا بقدر من النضال السياسي ثم اندلاع ثورة ١٩١٩ التي فجرها الحزب الوطني وسرقها سعد زغلول والوفد.

في عام ١٩٧٣ نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس وتحرير جزء من سيناء، وكان هذا لا يرجع إلى القوة العسكرية المصرية بل إلى نوع من الروح الإسلامية التي سمحت بها حكومة السادات في ذلك الوقت في إطار صراعها مع الناصريين والشيوعيين، وكذلك إلى استخدام أسلوب الإنسان في مواجهة التكنولوجيا فرد المشاة الذي يحمل سلاحاً مضاداً للدبابات « نموذج عبد العاطي » ... أي أن هذا النجاح الجزئي في حرب رمضان لم يكن يرجع إلى قوة الدولة أو الجيش، المهم أنه بعد عدة أيام من هذا النجاح قامت القوات الصهيونية بإحداث ثغره في النقطة المفصلية بين الجيشين الثاني والثالث هي ثغرة الدفر سوار، وتسللت منها إلى غرب قناة السويس واتجهت جنوباً إلى مدينة السويس وكانت تلك القوات تستهدف احتلال مدينه السويس، ولو حدث هذا لا قدر الله لكان معناه إكمال حصار الجيش الثالث أي حبلا يلتف على عنق ذلك الجيش، والوصول أيضاً إلى طريق السويس القاهرة، أي مسدس مصوب للقاهرة وقد صدرت الأوامر بالفعل لمحافظ المدينة بتسليمها لأن الأوضاع العسكرية والتموينية حسب تقدير القيادة لم تكن تسمح بالصمود، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت فوراً بقياده الشيخ حافظ سلامة، وتم اعتبار مسجد الشهداء مركزاً للقيادة وتم توزيع كمائن وتوجيه متطوعين إلى مداخل السويس وحدثت عملية مقاومة رائعة انتهت بمنع الإسرائيليين من دخول المدينة... وقد اعترف العدو والصديق بأهمية ذلك الدور الذي لعبته المقاومة الشعبية في السويس، وأنه لولا تلك المقاومة لتغيرت نتيجة حرب رمضان ١٩٧٣.

ما الذي جعل هذه المقاومة تأخذ القرار، ما الذي أعطى الشجاعة للشيخ حافظ سلامة بالتصدي لهذه المسئولية الضخمة على عكس إرادة القيادة السياسية... ذلك يرجع في رأيي إلى أن الفترة من ١٩٧١-١٩٧٣ تم فيها نوع من تقوية المجتمع، والسماح بالتعبير عن الوجدان الإسلامي، وإعادة الاعتبار لعلماء الإسلام، وإحساس الناس بأن الدولة لم تعد مرعبة وأنه من الممكن عمل مقاومة رغم أنفها. وقبل ذلك كان قد سمح للجمعيات الأهلية بالعمل

ومنها جمعية الهداية الإسلامية التي كانت يقودها الشيخ حافظ سلامة وكانت تقوم بعمل اجتماعي كبير في مدينة السويس مما أدى إلى تقوية ارتباطها بالجماهير، وكذلك كانت تقوم بتنظيم قوافل من علماء الأزهر قبل الحرب إلى كل الوحدات العسكرية المصرية لرفع الروح المعنوية للجنود، وتأكيد القيم الإسلامية والوجدان الإسلامي وكذا لأن الدولة كانت ضعيفة أو غير متغولة فلم تجد صعوبة في العمل.

إذا جئنا إلى حزب الله أو المقاومة اللبنانية مع الأخذ في الاعتبار عوامل أخرى مثل وقوف دولة إيران وراء الحزب. ولكن هذا لا يكفي بالطبع لتحقيق انتصارين كبيرين على أقوى جيش في المنطقة ومن أقوى جيوش العالم وهو الجيش الإسرائيلي، إذا جئنا إلى هذا النموذج، نجد أن الحزب نشأ في ظروف غير مواتية إقليمياً ودولياً ولكن كان هناك ضعف شديد في الدولة اللبنانية في بداية الثمانينات بعد الخروج من الحرب الأهلية، مما سمح للحزب بالعمل وكذا الضعف التقليدي لأي حكومة لبنانية فيما بعد بسبب التوازن الطائفي ومن ناحية أخرى فإن البنية الثقافية والدينية والاجتماعية في جنوب لبنان وبعلبك والضاحية الجنوبية لبيروت والبقاع الغربي تسمح بأن يظل الحزب أقوى من الدولة، أي أن المجتمع الحاضن للمقاومة هنا أقوى من جهاز الدولة، ومن ثم فإن تحقُّق هذا الشرط، شرط البنية الاجتماعية المواتية كان هو العامل الأساسي في تحقيق انتصارين كبيرين عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ مع عدم تجاهل عوامل أخرى بالطبع بالنسبة لتجربة حزب الله تحديداً.



زوال إسرائيل نبوءة قرآنية وحتمية تاريخية

هل هو إغراق في التفاؤل كرد فعل على حالة شديدة الصعوبة والقسوة تمر على المنطقة وعلينا.. أم هو نوع من خداع النفس أو الأماني الحلوة في الأيام المرة، أم نوع من الهروب من مواجهة تحديات ضخمة تمثلها جيوش وبواخر وأسلحة ودمار وقتل وترويع وتدخل سافر في شئوننا وصل إلى حد تحديد ما نتعلمه وما لا نتعلمه.. أم هو نوع من التشبث بالأمل حتى لا نستسلم لليأس؟.

ليس هذا ولا ذاك.. بل هو الحقيقة إن شاء الله، فإذا كنا نؤمن حقاً بالقرآن الكريم، فإن النبوءة القرآنية تتحدث بالفعل عن زوال إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٤-٧].

وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن زوال إسرائيل فإن هذا يصل إلى درجة اليقين المطلق لدى كل مسلم، وهو يقين مفيد لجعله لا ييأس أبداً مهما اختل ميزان القوى، ومهما كانت الظروف الدولية والإقليمية صعبة، لأن الله تعالى الجبار المتعال القادر على كل شيء، والأكبر من كل قوة هو الذى وعد بذلك ووعده الحق إن شاء الله تعالى، وبالتالي فإن استمرار المقاومة بكل أشكالها، ومهما كانت الصعوبات هو الطريق الصحيح والمشروع والمتفق مع المنهج القرآني، وهذا في حد ذاته إحدى علامات النصر إن شاء الله.

زوال إسرائيل أيضا حتمية تاريخية، ذلك أن إنشاء دولة إسرائيل هو على عكس حركة التاريخ والجغرافيا، وهو نوع من تثبيت جسم غريب في كائن حي يرفضه، ومهما كانت قوة

اللصق والتثبيت فإنها ستنتهي يوماً، وهذه المنطقة العربية الإسلامية، منطقة شديدة العمق حضارياً وثقافياً، وذات كثافة سكانية عالية ولا يمكن بكل الوسائل والطرق ولا حتى بالإبادة تفريغ المنطقة من السكان، أو تفريغها من وجدانها الثقافي والديني، ولأن المنطقة هي أعمق مناطق العالم ثقافة، فهي ستلفظ بالضرورة هذا الجسم الغريب، وإذا كان الغرب قد أراد أن يتخلص من المشكلة اليهودية بإنشاء إسرائيل، وليستفيد منها في نفس الوقت كقاعدة عسكرية متقدمة ضد قلب العالم العربي والإسلامي، فإنه أيضاً كان يدرك أن المنطقة لن تقبل ذلك، لا بسهولة ولا بصعوبة، ولم يكن هذا يهم الغرب بالطبع، فلسان حاله يقول فليذهب العرب واليهود معاً إلى الجحيم، ولأن اليهود أغبياء فقد بلعوا الطعم، ومارسوا غدرهم وحقدهم على المسلمين بلا هوادة، ولكن ذلك أيضاً لن يفلح في تثبيت كيان مفتعل وملفوظ جملة وتفصيلاً.. مهما كانت القوة العسكرية الإسرائيلية، ومهما كانت قوة الدعم الأمريكية والغربية للكيان الصهيوني، ومهما كانت وسائل الترهيب فلن تفلح في القضاء على مقاومة الجسم العربي الإسلامي ولا القضاء على مناعته في مواجهة هذا الجسم الغريب، ومهما كانت قوة التضليل وغسيل المخ وقوة الإغراءات والمشروعات لإقناع الشعوب بقبول التعايش مع إسرائيل أو التخلي عن الهوية والثقافة أو تفسير الإسلام تفسيراً جزئياً أو مغلوطاً فإن ذلك لن ينجح بل هو أحد المستحيلات والله متم نوره ولو كره الكافرون.

المنطقة العربية والإسلامية وتحديداً قلبها فلسطين، ليست منطقة خالية من السكان، ولا خالية من الثقافة، بل هي عميقة وكثيفة حضارياً وبشرياً، بل ربما هي الأعمق والأكثف في العالم، وهكذا فإن زوال إسرائيل حتمية حضارية، قد ينجح الضغط في تثبيت مؤقت لذلك الكيان، قد يتورط حاكم أو مجموعة بشرية أو دولة أو حتى جيل بأكمله في التعايش المستحيل مع إسرائيل، ولكن هذا ضد منطق الأشياء ولن يستمر طويلاً.

هذه الحقيقة بدأ يدركها مفكرو وقادة العدو الصهيوني أنفسهم، فهم يتحدثون عن وطن بلا مستقبل، أو أنهم أخذوا أكبر مقلب أو خازوق على حد تعبير أحد الشعراء الصهاينة في استقباله لأحد المهاجرين الجدد قائلاً له: تعال واجلس على الخازوق مثلنا.

المقاومة هنا شرط لازم لزوال إسرائيل.. والمقاومة قد اندلعت بالفعل وامتلكت الطريق الصحيح، بل وأفرزت ظاهرة رائعة وهي العمليات الاستشهادية.. وهذا سلاح لا يمكن القضاء عليه، لقد تمت عمليات استشهادية في جميع أنحاء فلسطين المحتلة، في الجليل، وتل أبيب ويافا وعكا وفي الضفة وغزة، وضد مستعمرات شديدة الحراسة وضد مستوطنين مسلحين، وضد كتائب الجيش الصهيوني ذاتها تمت هذه العمليات في جميع الأحوال والأوقات، وهذا يعني أن كل الاستخبارات والتحصينات والأقمار الصناعية ووسائل التكنولوجيا الحديثة والقديمة لم تكن حائلاً دون استمرار هذه العمليات، لا إمكانات الجيش الصهيوني ولا الجيش الأمريكي ولا محاولات السلطة، ولا الضغوط الدولية ولا حالة الهجوم الإعلامي المستمر على تلك العمليات ووصفها بالإرهابية، ولا محاولات إرهاب الشعب الفلسطيني وترويعه، ولا الاغتيالات ونسف البيوت ولا الأسوار والأطواق الأمنية حالت دون استمرار ونجاح تلك العمليات، والقيمة الكبرى لتلك العمليات ليس في مدى ما تحدثه من خسائر في صفوف العدو، بل بما تبثه من رعب في نفوس الإسرائيليين وما تحدثه بالتالي من خلل في المجتمع الإسرائيلي، بل ما تحققه من نسف لفكرة الصهيونية ذاتها، لأن الفكرة الصهيونية بالنسبة لليهود الصهاينة هي التجمع في مكان آمن ووطن قومي بعد أن عانى اليهود من الاضطهاد العنصري في أوروبا تحديداً!! وهذا بالطبع ليس ذنب العرب والمسلمين الذين يعاملون غير المسلمين بمن فيهم اليهود معاملة تليق بالعدل الإسلامي والأوامر الشرعية الإسلامية، ولعل ممارسات التاريخ القديم والحديث تؤكد ذلك، المهم أن الغرب نجح في إقناع اليهود بأن فلسطين ستكون مكاناً آمناً بالنسبة لهم، فهي أرض

بلا شعب، ومنطقة سوف تقبل بهم بالقهر والإغراء، وهي أيضاً ترجمة للتفسير المحرف للتوراة أو التلمود، ولكن جاءت حقائق التاريخ والجغرافيا والثقافة والمقاومة لتقول العكس، فالشعب الفلسطيني موجود، وهو لن يفرط في أرضه، وهو يمتلك أعلى نسبة خصوبة قادرة على إحداث توازن سكاني باستمرار مهما استمرت عملية الإبادة الصهيونية، والثقافة العربية الإسلامية عميقة الجذور لن تسمح بقبول دائم لإسرائيل في المنطقة، والنص القرآني والمفاهيم الإسلامية الثابتة منتشرة بقوة في المنطقة المحيطة، وهذا معناه استمرار الدعم المادي والمعنوي، بل وخروج الاستشهاديين من غير الفلسطينيين من العرب والمسلمين، والممارسات الإسرائيلية والأمريكية في المنطقة تدفع الشعوب دفعاً إلى إدراك أن الجهاد والمقاومة ليست فقط فريضة شرعية بل هي ضرورة حياتية وطريق بلا بديل وإلا فالموت والخضوع وفقدان الكرامة.. وبذلك كله وبغيره كثير، أصبحت فلسطين أقل الأماكن في العالم أماناً بالنسبة لليهود وهذا ينسف فكرة الصهيونية من جذورها، وهكذا فإن المقاومة في الحقيقة والتي وصلت إلى حد مطاردة الإسرائيليين في بيوتهم ومطاعمهم ونواديهم ومستوطناتهم وثكناتهم العسكرية، بل وخارج فلسطين ذاتها في كينيا على يد فدائيين ليسوا فلسطينيين، بل مسلمين ينتمون إلى تيارات عربية أخرى، هذه المقاومة تقول إن فكرة الوطن الآمن فكرة مزيفة، وأن على يهود إسرائيل أن يعيشوا في خوف ورعب دائم، وإذا كان الأمر بالنسبة للإسرائيلي مفهوماً حين يقوم بالقتال من أجل إنشاء وطن واستمراره وتثبيته، فهذا لا يكون إلا لفترة محدودة وبتضحيات معينة، أما أن تتحول المسألة إلى قلق وخوف دائمين، واستنفار مستمر وقتال بلا نهاية منظورة فهذا فوق الطاقة، وإذا كان ذلك هو قدر العرب والمسلمين، لأن هذه بلادهم وليس لهم بلاد غيرها، فإن ذلك ليس حتمياً بالنسبة ليهود إسرائيل، لأنهم يمكنهم العودة من حيث أتوا أو أتى آباؤهم، وبديهي أن حلم الاستقرار والتمتع بمباهج الحياة حلم كل إنسان، وخاصة الأجيال الجديدة في إسرائيل، وهكذا

فالمقاومة نسفت الفكرة الصهيونية، أما سيناريو زوال إسرائيل فهو مجرد تفاصيل.

تفسخ وانهيار المجتمع الإسرائيلي من الداخل، وشيوع حالة الخوف والفزع لدى الإسرائيليين أحرص الناس على الحياة وتشقق فكرة الصهيونية ذاتها أمر أصبح محسوساً ومعروفاً وترصده مراكز الأبحاث، بل يراه أي مفكر موضوعي داخل إسرائيل أو خارجها، بل إن تقريراً أعدته لجنة مشتركة من الكنيست ومجلس الوزراء الإسرائيلي عام ٢٠٠٥ وجاء بعنوان الواقع في إسرائيل يصل إلى نفس النتيجة وهو أن الأمور لو سارت بنفس الطريقة فسوف ينهار المجتمع الإسرائيلي من الداخل خلال ٢٠ عاماً وأنه لابد من علاج الموضوع.. وبديهي أن تلك أمانيهم، فالعلاج موضوعياً وحضارياً واستراتيجياً مستحيل، المهم أن التقرير يتحدث عن أن المقاومة والانتفاضة تسببت في عجز في الميزانية بلغ ٣٠٪ من عام ٢٠٠٠ وحتى الآن سنوياً، وأن الميزانية العسكرية تستهلك ٦٠٪ من عائدات إسرائيل القومية، وإذا كان علاج ذلك ميسوراً عن طريق ضخ الأموال لإسرائيل من أمريكا أو الدول التي صنعت إسرائيل وتستفيد منها مثل أمريكا حالياً، فإن علاج الخوف والفزع الإسرائيلي لا يمكن أن يتم لا عن طريق أمريكا ولا غيرها، يتحدث التقرير أيضاً عن أن ٣٠٪ من المواطنين لديهم رغبة أكيدة في مغادرة إسرائيل، وأن ١٣٪ من الأسر الإسرائيلية ترفض الإنجاب، وأن معدل المواليد انخفض بنسبة ٥. ٢٪، وتقول الأسر الرافضة للإنجاب برغم توفر المقومات الشخصية والاقتصادية لذلك إنها لا تريد إنجاب أطفال ليموتوا وأن أحداً في إسرائيل لا يضمن الآن العودة إلى أطفاله سالماً أو عودة أطفاله إليه من المدرسة سالمين!!، ويرصد التقرير حالة الهروب من الجيش أو رفض الخدمة في الأراضي المحتلة وتدني حالة الشعور بالوطنية لدى الجيل الجديد الذي يعبر عن رغبته في العيش بأمان وأنه من الصعب استمرار التوتر إلى الأبد!!، ويعترف التقرير أن هناك شعوراً بعدم الأمان يسيطر على الإسرائيليين، وأن الأولاد والأمهات والزوجات يخشون الآن النزول إلى الشوارع أو التسوق

وأن المسألة قد انتقلت من كوننا كنا يقصد إسرائيل نتحكم في مصائر الفلسطينيين إلا أن الفلسطينيين هم الذين قد يتحكمون في مصير إسرائيل خاصة أنهم يتحركون بلا نظام ومن الصعب بالتالي الإمساك بتلابيبهم أو تحديد وسيلة ناجحة للقضاء على إرهابهم!!

فرسان مالطة .. الحروب الصليبية لم تتوقف

يخطئ من يتصور أن الحروب الصليبية قد توقّفت في يومٍ من الأيام. ونقصد بالصليبية هنا: المسيحية الأوروبية، وهي مسيحية لا تمّت بصلة للمسيحية الشرقية بأيّ صورة من الصور.

الحروب الصليبية ليست فقط هي تلكَ الحروب التي فجَّرها البابا أربان الثاني عام ١٠٩٥م، عندما وقف، وقال: الآنَ بدأت الحروب الصليبية؛ لتحرير بيت المقدس من الكفار المسلمين، واستمرت تلك الحروب في حملات كثيرة قُدِّرت بحوالي ٢٠٠ عام، إلى أن تمّ دحرُها نهائياً عن الشرق، وتحرير آخر المعاقل من أيديهم في عكّا عام ١٢٩١، بل هي حروبٌ كانت قبل ذلك، واستمرت في الأندلس والمغرب العربي، في الصّراع العثماني الأوروبي، ثم في القرون الاستعمارية والصهيونية، وأخيرًا في العراق وأفغانستان والصومال.... إلخ.

ولم يكن جورج بوش إلاّ مُعبرًا عن الوجدان الصليبي الغربي، حينما قال: إن الحرب على العراق حربٌ صليبية!!

ولعلّ فرسان مالطة، هي إحدى تجليات هذه الحروب الصليبية.. وقد فجَّر الصحفي المخضرم محمد حسنين هيكل قنبلةً كبيرة، حين كشف عن استخدام الولايات المتحدة لهؤلاء الفرسان كمرتزقة، تُحرِّكُهم الروحُ الصليبية في معاركَ العراق وأفغانستان، بل تمّ الكشف أيضاً عن وجود هؤلاء في دارفور وجنوب السودان وغيرِها، وقد قاموا بالجهد الأكبر في مذابح الفلوجة عام ٢٠٠٤م، الأمر الذي يعني أننا بالفعل إزاء حرب صليبية بكل معنى الكلمة.

قد يختلط الأمر بالنسبة للبعض بين فرسان مالطة وجمهورية مالطة، ولكن الاسم يُعبِّر عن حالة تاريخية في مرحلة معيَّنة، الاسم الأكثر شهرةً لمجموعة من الصليبيين عمِلوا قُبيْل

الحملات الصليبية على بيت المقدس، تحت ستار العمل الخيري، وهم من الكاثوليك، ويمكن اعتبارهم طليعةً كان قد أرسلها بابا الكاثوليك إلى بيت المقدس، قبل الحروب الصليبية، وكتمهيد لها، فقد بدأ ظهورُهم على مسرح الأحداث عام ١٠٧٠، أي قبل الحرب الصليبية بحوالي (٢٥) عاماً، بدأ ظهورهم في ذلك الوقت كهيئة خيرية، أسّسها عددٌ من الإيطاليين؛ لرعاية الحجاج الكاثوليك في مستشفى القديس يوحنا، قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس. وكانوا يسمَّوْن « فرسان المستشفى » ، وكان هناك جماعات مماثلة في بيت المقدس تقوم بنفس المَهمَّة، تمهيداً للغزو الصليبي، مثل فرسان المعبد، فلما جاءت الحملات الصليبية قام هؤلاء بدور خبير في المعارك والاستخبارات، بل في المذابح؛ لأنهم كانوا يحملون عنصرية وكراهية شديدة للمسلمين. وبعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧ تمّ إخراجُهم نهائياً من الشام عام ١٢٩١ بسقوط عكّا وطرْدِ الصليبين منها. وخرج هؤلاء الفرسان إلى بلاد أخرى مثل رودس ومالطة وإيطاليا وغيرها، وسيطروا على بعض جزر البحر المتوسط: ومنها مالطة، ثم طُردوا منها، بعد أن حمَلوا اسم « فرسان مالطة » ، ودخلوا في معارك مع المسلمين.. المهم أنه انتهى الأمر بهم إلى أن اتّخذوا من روما مقرًا لهم، ولكنهم استطاعوا أن يُقيموا تنظيماً دولياً يضمّ فرساناً ومتطوعين، يحملون الحُلْم الصليبي التقليدي في العودة إلى بيت المقدس وتحطيم العالم الإسلامي، ولهم رمز مميز، هو صليب أبيض معلَّق بحبل أسود. ويقدر بعض الخبراء عدد هؤلاء بحوالي عشرة آلاف فارس وحوالي نصف مليون متطوِّع، ولهم تواجدٌ في عددٍ من الدول الأوروبية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ذاتِها، ولفرسان مالطة علاقات وثيقة مع منظمة مدكو كلوكس كلان الأمريكية العبقرية، التي مارست التطهير العرقي ضد السود والآسيويين في الولايات المتحدة.

وقد كشف الباحثان (الأيرلندي سيمون بيلز) والأمريكية (ماريا سانيكيران) أن أبرز أعضاء جماعة فرسان مالطة من السياسيين الأمريكيين هما: رونالد ريجان،

وجورج بوش الأب، رئيسا أمريكا السابقان، وحسب موقع فرسان مالطة على الإنترنت، فإن بريكسوت بوش الجد الأكبر للرئيس الأمريكي جورج بوش كان من الأعضاء البارزين في تلك الجماعة، وبحسب الموقع الرسمي لفرسان مالطة أيضاً، فإن رئيس منظمة فرسان مالطة هو الأمير البريطاني (فرا أندرو بيريتي) الذي تقلّد الرئاسة عام ١٩٨٨ ويقيم في روما ويُعامَل كرئيس دولة بكل الصّلاحيات والحصانات الدبلوماسية. وينص القانون الدولي على سيادة دولة فرسان مالطة، ولها صفة مراقب في الأمم المتحدة، وللمنظمة علاقات دبلوماسية مع (٩٦) دولة على مستوى العالم، والغريب أن منها دولاً عربية وإسلامية، مثل مصر والمغرب والسودان وموريتانيا!!

ما كشف عنه الصحفي المخضرم محمد حسنين هيكل بشأن العلاقة بين تلك المنظمة العنصرية منذ أيام الحروب الصليبية وبين حكومة الولايات المتحدة، يجعل الحقيقة الوحيدة والكبيرة أننا في العراق وأفغانستان إزاء حرب صليبية، فهناك تعاقد أيديولوجي مشترك بين حكومة الولايات المتحدة وتلك المنظمة. وأحد كبار أعضاء تلك المنظمة وهو جوزيف سميتز، الذي عمل مفتشاً عاماً في وزارة الدفاع الأمريكية، ثم انتقل للعمل كمستشار في مجموعة شركات برينس المالكة لشركة (بلاك ووتر)، وهذه الشركة الأخيرة هي أكبر الشركات الأمنية المتعاقدة مع الولايات المتحدة للعمل في العراق، وأن هناك حوالي (٢٠٠) ألف من المرتزقة يعملون لحساب الولايات المتحدة في العراق، معظمهم ينتمون للأيديولوجية الصليبية، وأن فرسان مالطة والمتطوّعين من أمثال هذه الجماعات ومنهم نصارى لبنانيون خاصة من جيش أنطوان لحد، يقومون بالأعمال القذرة مثل: التعذيب في السجون والمذابح في المدن العراقية (الفلوجة نموذج عام ٢٠٠٤).

وحجم أعمال شركة (بلاك ووتر) في العراق مثلاً حوالي (١٠٠) مليار دولار، وهي تمتلك أسلحة ثقيلة وطائرات مروحية، وتسعى هذه الشركة للعمل في دارفور.



لماذا يعتبر الغرب الهزيمة في أفغانستان أخطر من الهزيمة في العراق

رغم أن العراق يتمتع بثروات بترولية هامة تجعله مطمعاً للقوات الاستعمارية، ورغم الموقع الاستراتيجي للعراق على بوابة الوطن العربي الشرقية، فإن الغرب يعتبر الهزيمة في أفغانستان أخطر من الهزيمة في العراق، وذلك لعدة أسباب تتصل بأن التحدي الرئيسي الذي يواجهه الغرب — من وجهة نظر الغرب طبعاً — هو الإرهاب الإسلامي.

الهزيمة في العراق لها بالطبع تداعيات استراتيجية كبرى، على مستوى خطورة الصعود الإيراني من ناحية، وعلى مستوى التداعيات بالنسبة لدول المنطقة، وأيضاً على مستوى إحساس الشعوب بالقدرة على مواجهة العدوان الأمريكي الصهيوني، وعدم قدرة آلة الحرب العسكرية الأمريكية على إخضاع الشعوب، الأمر الذي سيقلص قدرة أمريكا على فرض إرادتها بسهولة على الآخرين. ويرفع الروح المعنوية لقوى المقاومة للمشروع الأمريكي الصهيوني، ولكن هذا الأمر أيضاً يتحقق بالهزيمة الأمريكية الغربية في أفغانستان، صحيح أن زخم الهزيمة في العراق من الناحية الإعلامية كبير جداً، ولكنه في النهاية في إطار الدعاية والإعلام التي من الممكن احتواء آثارهما.

الهزيمة في العراق تعني أيضاً فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي الذي كان يخطط للقفز على سوريا ثم السعودية ثم مصر وهكذا وإخضاع المنطقة بالكامل للنفوذ الأمريكي الصهيوني، ولكن هذا الفشل في المشروع الإمبراطوري الأمريكي يعني فقط فشل أجندة اليمين المحافظ الأمريكي ويمكن من ثم لإدارات أمريكية أخرى أن تتخلى عن هذا المشروع بالكامل وتعود إلى سابق سياساتها في المنطقة، وهو في النهاية فشل لأحد المشروعات الأمريكية. هذا بالطبع ليس بالأمر البسيط وله آثاره الكبيرة والممتدة ولكن من الممكن لأمريكا أن تتحمل هذا الفشل خاصة أنها نجحت إلى حد بعيد في إحداث فتنة طائفية في العراق يمكن لها أن تمنع قيام قاعدة إسلامية « سنية » في العراق إلى فترة غير قصيرة يمكن أن

تشكل خطراً على الغرب وأمريكا.

بخصوص أفغانستان فإن الأمر مختلف، فالهزيمة الأمريكية الغربية تعني مباشرة تحول أفغانستان إلى قاعدة للمقاومة الإسلامية السنية ضد الغرب وأمريكا، وهي المقاومة التي لا تقبل ولا تملك عناصر التفاهم مع أمريكا على عكس المشروع الشيعي، الذي لا يمانع من التفاهم مع الغرب وأمريكا على حساب السنة، بل يسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً ولولا وجود مشاكل عويصة مثل إسرائيل والملف النووي الإيراني وحزب الله في لبنان وغيرها، لأمكن لهذا التفاهم أن يتم.

من الناحية العرقية والمذهبية فإن أفغانستان يمكن أن تصلح قاعدة للمقاومة السنية، وهناك علاقات تاريخية موجودة بالفعل بين تنظيم القاعدة وطالبان، والتحالف الشمالي في أفغانستان وصل إلى حالة من التفكك والإحساس بعدم جدوى المراهنة على الأمريكان بحيث أنه لم يعد قادراً على منع تحول أفغانستان إلى قاعدة للمقاومة السنية، أضف إلى ذلك أن هذا التحالف لا يستند إلى عمق استراتيجي عرقي أو مذهبي، فباكستان مثلاً من الناحية الشعبية والمذهبية والعرقية ستنحاز إلى البشتون وطالبان، خاصة أنها لم تجد من أمريكا أي فائدة في إطار صراعها مع الهند، وهي ترى أن طالبان والبشتون هو عمق استراتيجي لها في النهاية في إطار المعادلات الإقليمية المعقدة في تلك المنطقة، أما شيعة العراق أو حلفاء أمريكا في الغرب فهناك امتدادات مذهبية لهم في إيران وعرقية بالنسبة للأكراد في العراق وكل من إيران وسوريا وتركيا وهكذا فإن طالبان لو استعادت السلطة، ستكون أكثر استقراراً من أي حركة سنية تصل إلى نوع من السلطة في العراق أو بعض مناطقه. والمحصلة النهائية أن الحرب على الإرهاب ستتأثر بالهزيمة في العراق، ولكنها ستصاب بضربة قاتلة بالنسبة لأمريكا في حالة الهزيمة في أفغانستان.

ولعل نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني قد شخص الحالة بشيء من الدقة عندما قال في خطاب له في استراليا في زيارته الأخيرة لها أن الجهاديين يمكن لهم بعد أن ذاقوا طعم النصر أن يشكلوا ملاذاً وقاعدة للإرهاب في أفغانستان، ومن ثم فإن قرار رئيس الوزراء البريطاني بسحب نصف قواته في العراق تتضمن أيضاً توجيههم إلى أفغانستان.

المؤشرات في أفغانستان تشير إلى غير صالح الاحتلال، ورغم وجود ٣٣ ألف جندي من قوات حلف الأطلنطي بالإضافة إلى ٢٠ ألفاً من القوات الأمريكية في أفغانستان، ويتم زيادتهم باستمرار، وقد طلب الرئيس الأمريكي زيادة قدرها ١٠. ٦ مليار دولار لحساب الحرب في أفغانستان، وبرغم تسلم قائد أمريكي جديد هو « دان ماكنيل » يوم ٤ فبراير ٢٠٠٧ من زميله البريطاني ديفيد ريتشاردز لمهمة قيادة قوات الناتو في أفغانستان، فإن الحقائق على الأرض تظهر تصاعد قوة طالبان، فالخسائر في الأرواح، وعدد العمليات الاستشهادية والفدائية التي نفذتها عناصر طالبان في عام ٢٠٠٦ كانت كبيرة جداً، بالقياس إلى مستوياتها منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٥، وتعترف مراسلة مجلة نيويورك تايمز الأمريكية في أفغانستان، أن حركة طالبان أصبح لها وجود قتالي في كل ولايات أفغانستان من دون استثناء، وأن هناك ثلاث ولايات تسيطر عليها طالبان بالفعل وهي أوروزغان، وهلمند، وقندهار وهناك ثلاث ولايات أخرى تسيطر طالبان على أجزاء منها وهي كابول وغازني وبكتيكا، كما شهد بداية عام ٢٠٠٧ استيلاء طالبان على عدد من المدن الهامة، بل ووجود مساندة من جانب جنود منسوبين للحكومة لطالبان في هذا الصدد، كما حدث في الهجوم على مدينة موسى قلعة، الأمر الذي يعني وجود اختراق قوي لطالبان في صفوف الجيش الحكومي، ووجود تعاطف لدى هؤلاء الجنود مع حركة طالبان، وعدم قدرة الحكومة على السيطرة على جيشها، وهو أمر يضع أعباء كبيرة على عاتق القوات الأجنبية، وفي الحقيقة فإن الرفض الشعبي الأفغاني لقوات الاحتلال يتزايد، والفشل والفساد المستمر لحكومة

كابول أدى إلى عزلتها وعدم وجود تأثير لها خارج القصر الرئاسي الذي يحرسه حراس أجانب ! !. ووصل الأمر إلى حد اندلاع مظاهرات تندد بالاحتلال في قلب العاصمة كابول، بل في مناطق من كابول ليست من الأغلبية البشتونية، بل تابعة لأعراق أخرى كانت تؤيد تلقائياً تحالف الشمال، وهذا يعني أن الإفلاس الحكومي، ورفض الاحتلال وصل إلى كل الأعراق الأفغانية وليس البشتونية فقط، أضف إلى ذلك أن الإحساس الباكستاني بضرورة تأييد طالبان رغم أنف الجنرال برويز مشرف حاكم باكستان أو برضاه الصامت أصبح يعبر عن نفسه علناً، فالسيد محمد خان أوركزاي، حاكم الولاية الحدودية الشمالية الغربية الباكستانية المتاخمة لأفغانستان وصف حركة طالبان بأنها « حركة تقوم بحرب تحرير وطنية »، مما دفع الإدارة الأمريكية والرئيس الأفغاني حامد كرازي باتهام باكستان بأنها توفر ملاذاً آمناً لمقاتلي طالبان، والحقيقة أن تعاون الشعب الباكستاني مع حركة طالبان هو تعاون يستند إلى أسباب دينية وعرقية ومن ثم فهو أقوى من أن تمنعه حكومة باكستان. بل إن شخصيات كثيرة داخل الحكومة ذاتها تعتبر أن دعم طالبان هو جزء هام من المصلحة الباكستانية والأمن القومي الباكستاني.

وهكذا فإن فشل وفساد حكومة كرازي، وعدم نجاح قوات الاحتلال في تقديم أي خدمات أو مزايا للشعب الأفغاني، وكذا إحساس الشعب الأفغاني بالمهانة بسبب الاحتلال الأجنبي، إلى جانب رفضه التقليدي المعروف والعتيد للاحتلال، جعل الشعب الأفغاني يتعاطف مع حركة طالبان التي نجحت بدورها في تنظيم صفوفها واستعادت زمام المبادرة مما يعني أن أياماً عصيبة تنتظر القوات الأجنبية في أفغانستان وأن العد التنازلي لهزيمة الغرب في أفغانستان قد بدأ.

د/ محمد مورو

وثيقة جورج بوش الثانية عن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي

ليس من قبيل الترف الفكري ولا حتى السياسي أن نهتم بالوثيقة التي أصدرها الرئيس الأمريكي جورج بوش عن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي في السنوات القادمة، ذلك أن تلك الوثيقة تكشف أن محور النشاط والسياسات الأمريكية في السنوات القادمة سيكون في منطقتنا تحديداً، ومن ثم فإن تأثير هذه الوثيقة سينصب علينا شعوباً وحكومات وجماعات سياسية، في الحاضر والمستقبل على السواء.

الوثيقة الجديدة هي الوثيقة الثانية التي أصدرها جورج بوش في غضون أربع سنوات وكانت الوثيقة الأولى قد صدرت عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ وحددت ساعتها أولويات وأهداف وسياسات أمريكا ولعل صدور وثيقة جديدة تحمل بعض المتغيرات عن الوثيقة الأولى رغم وجود قواسم مشتركة بين الوثيقتين يعبر في الحقيقة عن أن الوثيقة الأولى فشلت في تحقيق الأهداف كلياً أو جزئياً أو لم تعد صالحة للاستمرار كقاعدة سياسية وفكرية للسياسات والممارسات الأمريكية الراهنة والمستقبلية.

الوثيقة الجديدة جاءت في ٤٩ صفحة بعنوان أمريكا في حالة حرب كل من الوثيقتين بالطبع اشتمل على أفكار المحافظين الجدد الذين يسيطرون على إدارة الرئيس بوش، ومن ثم فالأهداف الأمريكية في الوثيقتين واحدة وهي ضرورة قيادة الولايات المتحدة للعالم وحقها في التصرف بشكل منفرد واستخدام القوة العسكرية والضربات والاستباقية للقضاء على أي تهديد حقيقي أو مشكوك فيه يواجه أمنها، وحق أمريكا في غزو الدول الأخرى دون الرجوع إلى الأمم المتحدة، وبكلمة واحدة فإنها تعبر عن روح الإمبراطورية الأمريكية، والغريب أن الانتقادات التي وجهت للوثيقة الأولي حول حق الولايات المتحدة في استخدام القوة ضد الآخرين وغزوهم لمجرد الشك في وجود خطر محتمل وهو نوع من إعطاء أمريكا الحق في تحديد نوايا الآخرين، أو الحكم عليهم أي الخصم والحكم والجلاد معا!!.

هذه الانتقادات لم تفلح في تغيير هذه الرؤية في الوثيقة الجديدة، بل حتى لم تفلح في تخفيف الهجمة والألفاظ المستخدمة في هذا الصدد.

الوثيقة القديمة اهتمت أكثر بالحديث عن الحرب والضرب والضربات الاستباقية والقوة الأمريكية.. الخ، والوثيقة الجديدة لم تغفل ذلك وإن كانت قد اهتمت أكثر بالحديث عن نشر الديمقراطية في العالم، ومعركة الأفكار وليس السلاح فقط في الحرب على الإرهاب، وهذا يعنى أن هناك إدراكاً أمريكياً، بأن الحرب على الإرهاب ليست بهذه السهولة، وأنها معركة طويلة جداً، وأنها ليست معركة عسكرية فقط، والاهتمام المبالغ فيه في الوثيقة الجديدة حول نشر الديمقراطية في العالم يعني أن هناك إحساساً أمريكياً بأن لعبة الخطر وأسلحة الدمار الشامل لم تعد قابلة للتصديق، وتعني أيضاً أن هناك إحساساً أمريكياً داخلياً وعالمياً، بأن القوات الأمريكية في العراق وأفغانستان إما أنها هُزمت وإما أنها تدفع ثمناً باهظاً من الدماء والأموال ومن ثم فلابد من البحث عن حجة طويلة المدى للاستمرار في الحرب وتكون تلك الحجة براقة وعاطفية بالنسبة للشعب الأمريكي في نفس الوقت.

تعترف الوثيقة الجديدة بأن الإرهاب ليس نتيجة حتمية للفقر فالعديد من الإرهابيين تربوا في ظروف ميسرة، وهذا صحيح ولكنه يفتقر إلى الربط بين الفقر والإحساس بأن هذا الفقر ناتج عن نهب استعماري، ومن ثم فالإحساس بالظلم والتعاطف مع حالة التردي الاقتصادي يمكن أن يؤثر على شخصيات غنية أو تربت في ظروف ميسورة أي أن العامل هنا عامل ديني أو عاطفي أو ثقافي أو غيره وليس بالضرورة عاملاً طبقياً، وهذا أمر موجود في كل حركات المقاومة بما فيها اليسارية ذاتها، فهناك يساريون تربوا في ظروف ميسورة.

ويظهر التأثير الصهيوني على الوثيقة واضحاً في قولها أن الإرهاب ليس ببساطة نتيجة للقضايا الخاصة بالإسرائيليين والفلسطينيين فالقاعدة قامت بالتخطيط لحادث ١١ سبتمبر في فترة كانت نشطة في مسيرة السلام ولعل تلك الرؤية الأمريكية تكشف عن جهل مركب

في الإدارة الأمريكية، لأن القضية الفلسطينية وما يحدث فيها مثلها مثل غيرها وإن كانت هي الأكثر تأثيراً ليست وليدة تلك السنوات فالإحساس بالظلم يتراكم لدى المسلمين منذ فترة طويلة، سواء في النهب الاستعماري أو المذابح إبان فترة الاستعمار، ثم في فلسطين وهكذا، ومن الممكن أن تظهر آثار تلك التراكمات في فترات السلام أو الحرب، ثم إن السلام الأمريكي الإسرائيلي المزعوم لم ينطل يوماً على الشعوب ولم تشعر بجديته، والشعوب تعرف أن السلام يعني إنهاء وجود إسرائيل كدولة، وعودة اليهود إلى بلادهم التي جاءوا منها، ومن ثم عودة الفلسطينيين إلى كل ديارهم، وتعويضهم عن المدة التي تم طردهم من هذه الأرض - كل الأرض -.

وما دام الإحساس بالظلم أو النهب الأمريكي الذي يؤدي إلى الفقر أو اغتصاب الأراضي وذبح الأهالي في فلسطين والعراق ليس السبب الحقيقي من وجهة نظر الأمريكيين - أو هذه الوثيقة بالتحديد - للإرهاب فما هو السبب إذن؟!

تقول الوثيقة: إن السبب يرجع إلى وجود نوع من الاغتراب السياسي لدى الإرهابيين - وهو نوع من الكلام المطاط الذي يصلح لتفسير أي شيء وكل شيء ويرجع إلى وجود أيديولوجية تبرر الإرهاب - أي اتهام الدين الإسلامي بوجود تفسير إرهابي له!! والحل طبعاً في الوصفة السحرية من وجهة النظر الأمريكية وهي الديمقراطية التي سوف تنهي الاغتراب السياسي وتحقق نوعاً من الاعتدال الإسلامي!!.

ولكن الغريب والعجيب أن حديث الوثيقة عن الديمقراطية سوف يصطدم للوهلة الأولى مثلاً بعدم ترحيب أمريكا بفوز حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية ودعوة الكونجرس لقطع المعونات عن الشعب الفلسطيني عقاباً له على انتخاب حماس، ويصطدم أيضاً بإعلان أمريكا نوعاً من قانون الطوارئ الدولي، فتعتقل من تشاء من المسلمين وتعذبهم وتقتلهم في أكثر من مكان بالعالم، في قلعة جانجي بأفغانستان، وجوانتانامو في كوبا،

وأبي غريب في العراق، بل في داخل أمريكا نفسها بقانون الأدلة السرية، وفي البقع السوداء في أوروبا وغيرها التي ثبت استخدام أمريكا لها كسجون دائمة أو مؤقتة.

على كل حال فإن الجزء الصحيح - ربما الوحيد في الوثيقة - هو أن الإدارة الأمريكية تعترف بأن الحرب على الإرهاب ستكون طويلة وأنها تشبه الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي السابق بحجة أن الإرهاب يستند إلى قاعدة شمولية وقمعية ولكنها فكرية وأيديولوجية ذات بريق معين.

مخاطر انسحاب أمريكا من العراق على إسرائيل!

يجب أن نعترف أن الكيان الصهيوني به قدر لا بأس به من التخطيط ورسم السيناريوهات المستقبلية، والاستعداد للمخاطر التي يمكن أن تواجهها إسرائيل في المدى القصير أو البعيد. وهذه ميزة يجب أن نقرها لأعدائنا، ولكن هل هناك مراكز أبحاث عربية أو إسلامية ترسم سياسات مستقبلية، وترصد المتغيرات التي يمكن أن تحدث ومن ثم تضع السياسات الملائمة لمواجهتها؟.

في تقرير استراتيجي استخباراتي قدمه الجنرال (إيلياهوفركن) رئيس جناح الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تناول فيه التهديدات الاستراتيجية التي يواجهها الكيان في السنوات القادمة. والتقرير نشرته بعض الصحف العربية نقلاً عن الباحث الفلسطيني حلمي الزغبي مدير مركز الدار العربية للدراسات والنشر.

يحتوي التقرير على العديد من السيناريوهات، ويطرح الكثير من الأسئلة، ولكن جوهر التقرير يهتم بالمخاطر المحتملة على إسرائيل في حالة الانسحاب الأمريكي من العراق، وهزيمة أمريكا في حربها ضد الإرهاب، أو فتور همتها في هذا الصدد. ويعد التقرير الأصولية الإسلامية هي الأخطر في هذا الصدد. وبالطبع يتناول التقرير قضايا أخرى أقل أهمية.

يرى التقرير أن مواجهة حرب كلاسيكية بالنسبة لإسرائيل أمر غير واقعي، ومن ثم غير خطير؛ فالعراق بقواته المسلحة خرج من تلك المعادلة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، وكذلك فإن كلاً من مصر والأردن مرتبطان باتفاقيات سلام مع الكيان الصهيوني، ويصعب كذلك من الناحية السياسية والاقتصادية لكل منهما خوض حرب كلاسيكية ضد إسرائيل، ولكن تظل فقط خطورة القصف الصاروخي من سوريا أو لبنان أو حتى إيران قائمة.

يطرح التقرير سيناريو سقوط حكومة حماس، ومن ثم انتشار الفوضى في قطاع غزة والضفة الغربية، ويرى التقرير أنه في هذه الحالة فإن هناك مخاطر زيادة أعداد « الاستشهاديين » بل وزيادة نشاط تنظيم القاعدة في المنطقة وفلسطين، وإمكانية حصول المقاومة الفلسطينية على صواريخ الكاتيوشا من مصادر خارجية، أو أسلحة مضادة للدبابات، وينصح التقرير باجتياح المناطق الفلسطينية باستمرار لمنع حدوث هذه المخاطر.

يطرح التقرير أيضاً إمكانية عودة النفوذ الروسي إلى المنطقة وإمكانية مقاومة القوى المعادية لإسرائيل مع روسيا، ويرى واضع التقرير أن روسيا تحاول استعادة وجودها في المنطقة بعد انحساره بانهيار الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٩١ . ولكنها بعد ذلك أي روسيا حاولت إقامة تعاون عسكري مع إيران وسوريا والجزائر والسودان، وهذه المخاطر قد تتصاعد بوصول رئيس روسي جديد يصعّد من الحرب الباردة مع أمريكا من جديد، وهذا يعني إمكانية حصول دول وجماعات بالشرق الأوسط على سلاح روسي متطور يشكل تهديداً جديداً للإمكانيات العسكرية الإسرائيلية.

ويعلق واضع التقرير على كل ذلك بقوله: إن هذه المخاطر السابقة هي من النوع الذي يمكن مواجهته، أما أخطر ما سوف تواجهه إسرائيل فهو تصاعد الأصولية الإسلامية في المنطقة في حالة انسحاب أمريكا من العراق، ولعل تطرُّق التقرير إلى مسألة إمكانية انسحاب

القوات الأمريكية من العراق هو نوع من رؤية الحقيقة التي باتت واضحة للجميع، وهي أن المقاومة العراقية أفشلت المشروع الأمريكي في المنطقة، وأن الهزيمة الأمريكية في العراق باتت من الحقائق التي تبني مراكز الأبحاث والاستخبارات على أساسها سياسات ومواقف الدول والحكومات.

يقول التقرير: إن هناك علامات ومؤشرات دالة على الإرهاق والوهن تبدو واضحة داخل الولايات المتحدة الأمريكية بل في عصب مراكز الإدارة الأمريكية في الكونجرس والقيادة العسكرية العليا ولدى الرأي العام، وهذه العلامات لا شك أنها مقلقة؛ لأن تراجع الولايات المتحدة عن حربها ضد الإرهاب وانسحابها من المنطقة ستكون له تداعيات كارثية على إسرائيل، وأنه اعتماداً إلى اعترافات وتقارير استخباراتية فإن الولايات المتحدة تخوض الآن حرباً دفاعية ضد الإرهاب والتي ستتحول إلى حرب هجومية، وحتى بالنسبة للحرب الدفاعية الأمريكية ضد الإرهاب سيتسع نطاق عملياتها، وخاصة في الشرق الأوسط وشمال إفريقية والقرن الإفريقي وفي باكستان والقوقاز، وإذا ما وصلت هذه الجماعات الأصولية ـ بصورة أو بأخرى إلى السلطة في إحدى دول ما كان يعرف بالمواجهة فإن الموقف سيكون خطيراً جداً بالنسبة لإسرائيل، وهكذا يقول التقرير أو يصل إلى نتيجة مؤداها أن تراجع النفوذ الأمريكي في المنطقة – وفي العراق تحديداً – سيفاقم من التحديات الأمنية ليس بالنسبة إلى إسرائيل فقط، بل كذلك لحكومات عديدة في المنطقة، وأنه ربما يتغير الشرق الأوسط برمته في اتجاهات سلبية ـ وغير محسوبة عندما تنسحب الولايات المتحدة من العراق.

وينصح واضع التقرير باتخاذ إسرائيل لعدد من الإجراءات والسياسات لمواجهة هذا الأمر، فمن الضروري – وفقاً للتقرير – أن تصبح إسرائيل طرفاً أساسياً في الحرب ضد الحركات الإسلامية؛ لأن إسرائيل هدف أساسي لهذه الجماعات، ولابد – وفقاً للتقرير أيضا – من عودة إسرائيل للاعتماد على قدراتها الدفاعية الرادعة بكل مكوناتها على ضوء

الاحتمال المتزايد لسحب القوات الأمريكية أو تقليصها في المنطقة، وخاصة في العراق وأفغانستان والقرن الإفريقي والبحرين الأحمر والمتوسط، وأنه يجب على إسرائيل أن يكون لها قواعد في المحيط الهندي والبحر الأحمر وآسيا حيث الخطر الأصولي الإسلامي الذي قد ينجح في الوصول إلى السلطة في باكستان والعودة للحكم في أفغانستان وفي جمهوريات آسيا الوسطى.

وما لم يقله التقرير، أو ما لم يواجهه واضع التقرير، أن نصائحه غير قابلة للتحقيق، لأنه إذا كانت أمريكا بكل إمكانياتها قد أخفقت في مواجهة هذا الأمر في كل من أفغانستان والعراق والقرن الإفريقي والشرق الأوسط والقوقاز.. الخ، فهل تنجح إسرائيل في ذلك؟!.

إيران.. بين التحدي النووي ولعبة السياسة:

لم يكن الإعلان الذي وصفته الدوائر الإعلامية بالإعلان المفاجئ عن تخصيب اليورانيوم في إيران، ومن ثمّ النجاح في الوقوف على عتبات القدرات الذرية والنووية، لم يكن هذا الإعلان شيئاً عادياً يمكن أن يمر بسهولة، بل لم يكن إلا محصلة لكثير من المتغيرات والأوضاع واحتمالات المستقبل.

الإعلان بالنجاح في التخصيب قام به كبار القادة الإيرانيين، بطريقة زف بشرى كبيرة للشعب الإيراني، والشعب الإيراني بدوره أعرب عن فرحه الشديد بهذه المسألة، وخرجت المسيرات المليونية، ونُظّمت المهرجانات الاحتفالية، وهو أمر يعني أن الحكومة الإيرانية استعادت إلى حد كبير سخونة الشارع السياسي الإيراني، ودعمت موقفها الشعبي و رسّخت وجودها، واستعادت القدرة على إلهاب مشاعر الجماهير، وفي الحقيقة فإن تلك السمة الجديدة لم تكن وليدة لحظة الإعلان عن النجاح في تخصيب اليورانيوم، بل قل إنها سياسية ومتعمدة للرئيس محمود أحمدي نجاد الذي أطاح بحقبة الليبرالية والانفتاح والإصلاح ومحاولة بناء جسور مع الغرب، التي صبغت حكم الرئيس محمد خاتمي.

الرئيس نجاد والذي أعاد إلى الأذهان صورة الحاكم المتواضع والنظيف، تعمّد أن يعلن بوضوح وقوفه ضد إسرائيل - وهو أمر يستفزّ الغرب، وتحدّث عن إنكاره للهلوكست، وكذا رغبته في إنهاء دولة إسرائيل، وإقامة دولة بديلة لليهود في النمسا أو ألمانيا، أي أنه استفز السياسة الغربية في أكثر نقاطها حرجاً.

وهو بذلك يفتح معركة متعمدة مع أمريكا وإسرائيل والغرب - وربما كان يقصد استعادة النفوذ والسمعة الإيرانية لدى الشارع الإسلامي وخاصة السني منه الذي أيّد قطاع منه إيران على قاعدة العداء لأمريكا وإسرائيل، وعندما ضعف أو تراجع هذا العداء ضعف ذلك التأييد، بل بدأ فقد إيران لشعبيتها بسبب موقفها المتواطئ في أفغانستان، والعراق، وكذا موقف شيعة السيستاني في العراق والمجلس الأعلى وحزب الدعوة المتعاونين مع الاحتلال، مما أساء إلى حزب الله نفسه في لبنان، وقلص مساحة التعاطف السني معه، وكذا إيران بالطبع. البعض يرى أن تصعيد أحمدي نجاد في هذا الصدد كان نوعاً من غسيل المواقف، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، فما تم إفساده في أعوام لن يكون من السهل علاجه في أيام وبكلمات. خاصة أن الموقف الإيراني في العراق ما زال يدور حول التقسيم، أو مد الجسور مع كل القوى واللعب على التناقضات، وليس موقفاً معادياً بوضوح لأمريكا وجنودها، وداعماً للمقاومة ضد تلك القوات. وبديهي أن هذا خطأ إستراتيجي؛ لأن الأوضاع في المنطقة، وتخصيب إيران لليورانيوم والملف النووي عموماً، وكذا تطوُّر السلاح البحري الإيراني لدرجة إنتاج أسرع صاروخ بحري في العالم، يعني أن الصدام مع الولايات المتحدة أمر حتمي، ويجب من ثم تغيير السياسة الإيرانية في العراق لصالح مشروع المقاومة، والضغط على الأحزاب الشيعية المتورطة في التعاون مع الأمريكان في العراق لتغيير موقفها، وهذا صعب جداً بالطبع. على أي حال فإن إيران تعمّدت أن تعلن دعمها المالي لحكومة حماس، ونظمت مؤتمراً لنصرة الشعب الفلسطيني والرئيس « نجاد » قال في هذا المؤتمر: « إن إسرائيل

شجرة جافة عفنة في طريقها إلى الزوال، وإن الشعب الفلسطيني سيتم تحريره قريباً، وإن بلاده لن تخضع لأمريكا، ولا لغير أمريكا » ، أي أن الحكومة الإيرانية عادت للغة التحدي، وهي ترى أن أمريكا أضعف من أن تفعل لها شيئاً، ولكن في نفس الوقت فإن الحكومة الإيرانية لا تمانع في إجراء حوار حول الشأن العراقي مع الأمريكان، أي تقبل أن تكون بديلاً عن الشعب العراقي، وهذا مرفوض طبعاً، ولكنه في جانب منه يعني أن أمريكا باتت تعترف بأن لإيران نفوذاً هو الأكبر في العراق، وأن أمريكا تتعامل مع إيران كقوة إقليمية كبرى.

بخصوص الملف النووي؛ فإن الحديث عن ضربات أمريكية أو إسرائيلية لإيران لا يتعدى كونه ضربات محدودة، وليس غزواً شاملاً كما حدث مع أفغانستان والعراق، وبديهي أن هذا يقوي إيران ولا يضعفها، ولعل نجاح إيران في المراوغة والقدرة في النهاية على دخول النادي الذري رغم أنف الأمريكان والأوروبيين ووكالة الطاقة الدولية... الخ يعني أن الإرادة أقوى من كل التحديات، وهو درس للجميع، وأن أمريكا ليست قدراً لا يمكن الفكاك منه، على أنه من الضروري من الناحية التحليلية العلمية أن نضع في اعتبارنا هنا عاملاً هاماً ساعد إيران في ذلك، وهو تصاعد المقاومة العراقية - وهي سنية معظمها - وتصاعد هذه المقاومة حال دون قدرة أمريكا على ضرب إيران أو سوريا أو لبنان، وحال دون تفرغها للملف الإيراني أو السوري، بل وأوقع الإدارة الأمريكية في مستنقع يصعب معه مضايقة إيران بشكل جدّي؛ لذا فإن استمرار تلك المقاومة، وكل مقاومة في المنطقة هو الضمانة الأولى - وليست الوحيدة بالطبع - لاستمرار النجاح الإيراني في هذا الصدد وهي حقيقة يتعين على المسئولين الإيرانيين أخذها في الحسبان، وإعادة النظر في تحالفاتهم على الساحة العراقية في ضوء تلك الحقيقة الساطعة!.



هدم الأقصى عقيدة صهيونية

الحديث الملفق عن اكتشافات صهيونية لآثار تتصل بالتاريخ اليهودي تحت المسجد الأقصى ليس إلا مقدمة لتنفيذ الخطة الصهيونية بهدم المسجد الأقصى وهكذا فإن تهديد المتطرفين اليهود باقتحام المسجد - حديث يجب ألا يمرّ بهدوء، ويجب أنْ يُؤخذ بجديّة؛ ذلك أنّ التخطيط لهدم المسجد الأقصى ليس وليد هذه اللّحظة؛ بل هو عمليّة قديمة جداً تتكرّر وسوف تتكرّر؛ لأنّها جزءٌ لا يتجزّأ من العقيدة الصّهيونيّة، وهي عقيدة لا تخصّ اليهود الصّهاينة وحدهم؛ بل تخصّ قطاعًا كبيرًا من المسيحيّة البروتستانتية (المسيحيّة الصّهيونيّة)؛ ذلك أنّ تلك العقيدة المزعومة يؤمن أتباعها أنّ من شروط عودة المسيح ووقوع معركة (هرمجدون) للقضاء على الأشرار (المسلمين تحديدًا، واليهود أيضاً)، وبداية ما يسمّى الألفية السعيدة - إنّ من شروط ذلك هدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان في مكانه؛ حيث يعتقد هؤلاء أنّ هيكل سليمان يقع تحت المسجد الأقصى، وهكذا فنحن أمام قوى إسرائيليّة ويهوديّة صهيونيّة، ومسيحيّة بروتستانتيّة صهيونيّة، والأخيرة لها أتباع كثيرون في الدول البروتستانتية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكيّة، وبريطانيا، واستراليا، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ فإنّ هناك داخل الولايات المتحدة نفوذًا قويًّا لتلك العقيدة، وهناك كنائس تبشر بذلك، وتدعو إليه، وتجمع من رعاياها المال اللازم لتمويل عمليّة هدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل، ودعم إسرائيل سياسيًّا وإعلاميًّا كجزءٍ من تحقيق شروط عودة المسيح المزعومة؛ كما تتمتع هذه الجماعة بنفوذٍ قويّ داخل الحزب الجمهوريّ في الولايات المتحدة، ويتعاطف معها بصورة ضخمة رموز اليمين الأمريكي المحافظ من « ديك تشيني » إلى « دونالد رامسفيلد » إلى الرئيس « بوش » ذاته، وكان الرئيس الأمريكي الأسبق « رونالد ريجان » يؤمن مباشرة بتلك العقيدة المزعومة، كما تمتلك تلك الجماعة قنواتٍ تلفزيونيّةً وإذاعيّة وصحفًا، ويتبعها عددٌ كبير من القساوسة أمثال « باث روبرتسون » والأب « جراهام » وغيرهما.

وهكذا فنحن أمام تهديد جديّ مهما كان غريبًا ومتطرّفًا لهدم المسجد الأقصى... الأمر الذي يستدعي تحرّكًا شعبيًّا وحكوميًّا... عربيًّا وإسلاميًّا.

محاولات هدم المسجد الأقصى بدأت منذ عام ١٩٦٩ م... أي بعد عامين فقط من الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس؛ مما يؤكّد مدى تغلغل هذه الفكرة في العقل الصهيونيّ المسيحيّ واليهوديّ على حدٍّ سواء، وقد كانت المحاولة الأولى لحرق المسجد الأقصى عن طريق البروتستانتي الأسترالي « مايكل روهان » في ٢١ / ٨ / ١٩٦٩ م، ونلاحظ هنا أنّ ذلك الشخص ليس يهوديًا ولا إسرائيليًّا؛ بل مسيحيّ بروتستانتيّ أسترالي، وقد تمّ القبض عليه واعترف بالموضوع إلا أنّ المحكمة الإسرائيليّة أصدرت أمرًا بإطلاق سراحه بدعوى أنّه مصابٌ بنوعٍ من الجنون المتقطع، وأنّه أثناء المحاولة كان واقعًا تحت سطوة إحدى نوبات الجنون هذه، وقد تكرّرت المؤامرات لحرق أو هدم المسجد الأقصى بعد ذلك مراتٍ كثيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: تآمر عدد من أتباع (عُصبة الدّفاع اليهوديّة) عام ١٩٨٠م بقيادة « مائير كاهانا » و « باروخ غرين » وخطّطوا لنسف المسجد الأقصى، وفي عام ١٩٨٢م خطّطت جماعة سريّة صهيونيّة مكوّنة من (٢٧) شخصًا بقيادة « يهودا عتسيون » لنسف المسجد الأقصى، وعددٍ آخرَ من المساجد في القدس المحتلة، وقد أُلقي القبض على هؤلاء وسرعان ما تمّ إطلاق سراحهم، ولا يزال « يهودا عتسيون » حتى اليوم يحرّض علنًا على نسف المسجد الأقصى، وفي عام ١٩٨٩م قامت مجموعة من جماعة (غوش أمونيم) باقتحام المسجد الأقصى، وهذه المحاولات... « محاولات اقتحام المسجد الأقصى » تتمّ سنويًّا، وخاصة في الذكرى السنويّة لهدم هيكل سليمان المزعوم، كما قام في نفس الإطار « أرئيل شارون » قبل أنْ يصبح رئيسًا للوزراء بدخول المسجد الأقصى عام ٢٠٠٠م، وقد قامت الحكومة الإسرائيليّة وقتها بحراسته، بـ (٣٠٠) جندي إسرائيلي، وقد كانت هذه المحاولة

ونلاحظ هنا أنّ المؤسّسة الرسميّة الإسرائيليّة والتي لم تطلق بعد إشارة البدء في هدم المسجد الأقصى، على أساس أنّ الظروف لم يتمّ إعدادها بعد في إطار حسابات معيّنة؛ إلا أنّ تلك المؤسّسة تطرح حاليا فتح المسجد الأقصى لزيارة اليهود والصلاة فيه لليهود، على غرار ما يحدث في الحرم الإبراهيمي بالخليل... الذي فرض عليه التقسيم الوظيفي؛ فتحول إلى جامع وكنيس معًا... أي تتمّ فيه الصلاة للمسلمين واليهود على حدٍّ سواء كما أنّ المؤسّسة الرسميّة الصّهيونيّة تقوم من وقت لآخر بعمل ضربات، وأنفاق، ومشروعات مشبوهة حول المسجد الأقصى، وتحته بهدف زعزعة أساساته تمهيدًا لهدمه أو سقوطه من تلقاء نفسه، كما أنّ تلك المؤسّسة الرسميّة قد قامت بضمّ القدس رسميًّا بكاملها إلى دولة إسرائيل عقب احتلالها مباشرة، وكثّفت عمليّات الاستيطان الإسرائيلي فيها وحولها وإنشاء مستعمراتٍ، وهدم بيوت الفلسطينيّين فيها، ومضايقتهم، ودفعهم إلى ترك القدس، وتغيير الطبيعة السكانيّة للمدينة، وطمس المعالم الإسلاميّة والمسيحيّة فيها بهدف تحويلها إلى الطابع اليهوديّ، وهذا كله في إطار هدم المسجد كمحصّلة ونتيجة ومن ثم بناء الهيكل ! !.

ويعترف الصهيوني « شاحر زليغر » أنّه يوجد حاليًّا عدد من المنظّمات الإسرائيليّة متفقة فيما بينها على تدمير كل مساجد القدس في أثناء صلاة الجمعة بما فيها المسجد الأقصى، وذلك بهدف تدمير المساجد، وقتل أكبر عدد من المصلّين في نفس الوقت.

وفي الإطار نفسه تأسّست ما يسمى بـ « جماعة أبناء الهيكل » عام ١٩٨٨م، وحصلت على ترخيص رسميّ إسرائيليّ بممارسة نشاطها تحت مسمى (مؤسّسة العلوم والأبحاث وبناء الهيكل)، وكان مؤسّسها هو « يسرائيل أرييل » ، ويقوم أعضاء هذه الجماعة المشبوهة حاليًا بجمع وإعداد المواد اللازمة الخاصّة ببناء الهيكل، وقد أعدّت الجماعة رسمًا تخطيطيًّا للهيكل المزمع إقامته مكان المسجد الأقصى، ويرى هؤلاء ضرورة هدم المسجد الأقصى عاجلا أو آجلا؛ لأنّ هيكل سليمان - حسب زعمهم - يقع تحته مباشرة، ويقول زعيم تلك الجماعة

الحاخام « مناحم مكوبر » : « إنّه في كل الأحوال، وتحت أي ظروف سوف يتمّ بناء الهيكل، وسوف يتمّ هدم المسجد الأقصى، وأنّه في الوقت الذي سنحصل فيه على الضّوء الأخضر سيتمّ بناء الهيكل خلال بضعة أشهر فقط باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجيّة، وأنّ المساجد الموجودة في تلك المنطقة - بما فيها المسجد الأقصى، وقُبّة الصخرة - هي مجرّد مجموعة من الأحجار يجب إزالتها » .

د/ محمد مورو

دور الأصولية الإنجيلية فى قيام ودعم إسرائيل

الأصولية الإنجيلية، أو الصهيونية المسيحية، هي تيار مسيحي كبير له الكثير من الأتباع والمؤسسات ومراكز النفوذ والكنائس والصحف والقنوات التليفزيونية والإذاعات والبنوك وغيرها فى أوروبا وأمريكا، ويعتمد هذا التيار أساساً على أتباع المذهب المسيحي البروتستانتي.

وقد لعب هذا التيار دوراً كبيراً في نشأة إسرائيل ودعمها حتى اليوم وله نفوذ كبير داخل مؤسسة الرئاسة الأمريكية بل إنه يلعب دوراً مهماً في توجيهها، بل إن رؤساء أمريكيين مثل ريجان كان من المنتمين إلى هذا المذهب وكذلك يتأثر بهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن.

ويؤمن أتباع هذا المذهب أن هناك ثلاثة إشارات إلهية يجب أن تتحقق قبل أن يعود المسيح إلى الأرض وهي قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات، وامتلاك مدينة القدس، وإعادة بناء هيكل سليمان، وأنه بعد تحقق تلك الإشارات فإن معركة هرمجدون وهي معركة يعتقد الإنجيليون أنها ستقع في سهل مجدون القدس وعكا وأن التنبؤ بها ورد فى أسفار حزقيال ويوحنا ويوشع وهي تقول إن قوات الكفار سوف تُدمَّر فيها، وإن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ويرفع بالجسد المؤمنين به ويخلصهم من الدمار ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة.

ووفقاً لهذه العقيدة الدينية فإن الانجيليون يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل واجب شرعي مسيحي وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها وكذلك تمويل الاستيطان اليهودي في الأرضِ المحتلة، بل أكثر من هذا فإن عليهم دعم المخططات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكل سليمان.

وفي الحقيقة فإن نشأة الأصولية وانتشارها يخضع لأكثر من تفسير، فالبعض يعتقد أن اليهود نجحوا في التسلل إلى دوائر الكهنوت المسيحي واستطاعوا إدخال العقائد الخاصة بقيام إسرائيل واحتلال القدس وإقامة هيكل سليمان في صلب الإيمان المسيحي وخاصة البروتستانتي وأن ذلك تمهيد لعودة المسيح بحيث أصبح دعم المخطط اليهودي لإقامة إسرائيل من الفرات إلى النيل واجب مسيحي شرعي.

ويرى البعض الآخر أن دهاة الساسة الأوروبيين، المعادين للسامية والكارهين لليهود هم الذين أنشأوا هذا المذهب لضمان تأييد مسيحي واسع لذلك على أساس أن هذا الأمر يجعل اليهود يفكرون في قيام وطن لهم في فلسطين على حساب العرب المسلمين، وبذلك يضرب هؤلاء عصفورين بحجر واحد، أولهما هو التخلص من اليهود على أساس أنهم سبب البلاء في أوروبا وأنهم نفاية بشرية يجب أن تتخلص منها أوروبا، وفي نفس الوقت تحقيق نوع من التآمر ضد العرب والمسلمين واستخدام اليهود كقفاز لضرب الإسلام والمسلمين على اعتبار أن هناك عداءًا تاريخياً وصراعاً مستمراً لم يحسم حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية.

وفي الواقع فإننا نرى أن التفسيرين صحيحان وأن المخطط اليهودي تلاقى مع رغبات دهاة الساسة الأوروبيين المعادين للسامية وأن اللقاء بين الرغبتين أنشأ هذا التيار ونفذ هذا المخطط فقيام إسرائيل وتوسعها يحقق هدف اليهود ويحقق هدف الأوروبيين في وقت واحد على حساب العرب والمسلمين.

وإذا بحثنا في هذا التيار وظروف ظهوره، نجد أنه اتجاه قديم في السياسة الأوروبية، فعلى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى وأن الله طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقاباً على صلب المسيح، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن النبوءات الدينية التي تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وأن هذه العودة

قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسي قورش.

ثم جاءت ما يسمى بحركة الإصلاح الديني المسيحي الذي تمخضت عنه البروتستانتية ثم انتشار المذهب البروتستانتي في أوروبا وأمريكا ليكون الأرض الخصبة لنشأة المسيحية الصهيونية والإيمان بضرورة قيام إسرائيل وبناء المعبد كتمهيد ضروري لظهور المسيح، وتكريساً لهذا التحول أصبح العهد القديم « التوراة » هو المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها، وفُتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود كما تم اعتبار اللغة العبرية باعتبارها اللغة التي أوحى بها الله إلى أنبيائه واللسان المقدس الذي خاطب به شعبه المختار هي اللغة المعتمدة للدراسة الدينية، ومن خلال ذلك تغلغل الفكر اليهودي إلى قلب الحركة الدينية المسيحية عموماً والبروتستانتية خصوصاً.

ثم بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل في فلسطين تظهر على يد علماء الدين المسيحي البروتستانتي ثم رجال السياسة البريطانيين والأوروبيين مثل عالم اللاهوت البريطاني توماس برايتمان ١٥٦٢ - ١٦٠٧ والسياسي البريطاني هنرى منشن ١٦٢١ ثم العالمين الإنجليزيين جوانا والينزر كارترايت ١٦٤٩ ثم السياسي البريطاني كروميل ١٦٤٩، ثم الفرنسي فيليب جنتل ١٦٥٦، لم يقتصر الأمر في هذا الصدد على علماء الدين والسياسيين بل تعداه إلى الأدباء والفنانين مثل ميلتون ولورد بايرون وكولريدج وألكسندر بوب وجان راسين وجورج إليوت وغيرهم.

ثم تبنى هذه الدعوة اللورد الإنجليزي شافتسبرى ١٨٨٢ وكذلك دوق كنت وجلادستون واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطاني ١٨٦٥، بل حتى نابليون بونابرت قد تبنى الدعوة إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين ووجه الجنرال بونابرت نداءً إلى اليهود ودعاهم فيه بالورثة الشرعيين لفلسطين وطالب فيه بإقامة دولة لليهود في فلسطين وذلك في أثناء حملته على الشرق ١٧٩٨ - ١٨٠١.

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ظهر تيودور هرتزل فتبنى هذا الأمر ودعا اليهود إلى العمل على تحقيقه وتم بلورة ذلك في مؤتمر بال عام ١٨٩٧، ثم تدافعت الجهود اليهودية والأوروبية إلى أن تمخضت عن وعد بلفور سنة ١٩١٧، وبعد ذلك حظيت الدعوة بدعم كامل من أوروبا وأمريكا إلى أن قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

الصهيونية المسيحية في أمريكا

مع تصاعد قوة ونفوذ الولايات المتحدة، ومع زيادة وزنها الاقتصادي والسياسي والعسكري نشطت داخلها الحركة المسيحية الصهيونية ويبلغ عدد المنتمين إلى الكنائس الإنجيلية التي تعتقد بالمسيحية الصهيونية وضرورة قيام إسرائيل وبناء الهيكل تمهيداً لعودة المسيح حوالي ٧٧ مليون أمريكي ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة، وتمتلك هذه الاتجاهات فى أمريكا العديد من قنوات التليفزيون حوالي ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة، وحوالي ٤٠٠٠ مقدم برامج والعديد من الصحف ووكالات الأنباء بل ومنهم العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة كان منهم الرئيس ريجان والقس سيجوارت والقس فالويل والقس بات روبرتسون والعديد من أعضاء الكونجرس ودوائر النفوذ المالي والإعلامي والسياسي الأمريكي، ويتأثر بهذا المذهب الرئيس بوش الابن ووزير دفاعه رامسفيلد ووزير العدل أشكروفت، ويستطيع هؤلاء إقناع الـ ٧٧ مليون من أتباعهم بأن دعم إسرائيل واجب مسيحي وكذلك، يستطيعون إقناع عدد أكبر من غير أعضاء الكنائس الأصولية، أي أنهم عملياً قادرون على خلق رأي عام واسع جداً في أمريكا لتأييد إسرائيل ودعمها ناهيك عن النفوذ اليهودي التقليدي في الكونجرس والإعلام ودوائر المال.

وعلى أي حال فإن مجرد نظرة على المؤسسات التابعة للكنائس الإنجيلية التي تؤمن بالمسيحية الصهيونية يدلنا إلى أي مدى وصل نفوذهم المالي السياسي والإعلامي في أمريكا، فهناك على سبيل المثال لا الحصر المصرف الأمريكي المسيحي من أجل إسرائيل، مؤتمر القيادة

الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل، منظمة جبل المعبد، وتبلغ هذه المنظمات في أمريكا عموماً حوالي ٢٥٠ منظمة تدير آلاف المصارف والصحف والمؤسسات المالية والإعلامية.

وتبشر هذه المنظمات المسيحية بالعديد من المفاهيم داخل أمريكا وخارجها فهي تؤمن بأن دعم إسرائيل هو التزام ديني ثابت وليس مجرد التزام سياسي متغير ومتحرك، كما تعتبر شرعية الدولة اليهودية مستمدة من التشريع الإلهي وبالتالي اعتبار قيام الدولة تحقيقاً للنبوءات الدينية، التشديد على أن أرض إسرائيل هي كل الأرض التي وعد الله بها إبراهيم وذريته، وبالتالي تشتمل كل الأرض الموعودة من النيل إلى الفرات، استمرار العمل بالشعار الذي يقول: إن الله يبارك إسرائيل ويلعن لاعنيها، وبالتالي فإن دعم إسرائيل طريق إلى بركة الرب، بل إنه عندما يتناقض القرار الإسرائيلي مع مواثيق الشرعية الدولية أو القانون الدولي فإنه لا اعتبار لذلك ويجب احترام القرار الإسرائيلى لأنه تعبير عن إرادة الرب، أما القوانين الدولية فإنها تعكس إرادة الانسان، ومن الضروري احترام إرادة الرب إذا ما تناقضت مع إرادة الانسان.



التحالف العنصري بين أمريكا وإسرائيل

يلخص الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه « الفرصة السانحة » - يلخص الموقف الأمريكي تجاه إسرائيل قائلاً: « إنني أتذكر بوضوح اجتماعًا حدث في عام١٩٧٣ م مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط، وكانت في بدايتها ولم تكن هذه البداية في صالح إسرائيل » ، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أي إجراء في هذا الشأن؟ أجبته بلا مواربة : « ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل » .. وأمرت عندئذ بعمل جسر جوي ليدفع عن إسرائيل الهزيمة.. وعلينا الآن أن نسأل أنفسنا سؤالاً عن مدى أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا لدرجة أنه ليس هناك رئيس أمريكي يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل، ولدرجة أن يقوم الرئيس الأمريكي نيكسون في ذلك الوقت عام ١٩٧٣ م بعمل جسر جوي لنقل السلاح من المخازن الاستراتيجية للجيش الأمريكي لحماية إسرائيل.

هل أهمية إسرائيل هنا جيوبوليتيكية مثلاً؟، أم أن هناك تحالفًا بين أمريكا وإسرائيل لأسباب أخرى ليست سياسية ولا عسكرية في جوهرها وليست بسبب أهمية أو عدم أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا، لنترك أيضًا الرئيس الأمريكي الأسبق يجيب على السؤال، يقول نيكسون: « إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا، إن إسرائيل ليست مكسبًا استراتيجيًا للولايات المتحدة، بخلاف الرأي السائد في هذا الشأن، إن تعاوننا في أجهزة المخابرات والمناورات والمسائل الحربية مهم، ولكنه ليس حيويًا، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقًا كفاءتها في الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود في المنطقة، ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم، فلن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح [illegible]

وإسرائيل هذه التي لا تمثل أي مكسب استراتيجي للولايات المتحدة، لا يستطيع لا الرئيس ولا الكونجرس التخلي عنها، وهي التي اعترفت بها أمريكا بعد دقائق من قيامها! وهي التي أسهم الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً في قيامها واستمرارها وتوسعها، وإسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح ومن المواقف السياسية والفيتو وغيرها من أمريكا بدون تحفظ، وقد حصلت إسرائيل من أمريكا منذ ١٩٧٤م وحتى ١٩٨٩م على حوالي ٤٩ مليار دولار كمعونة، وحصلت على ١٦,٤ بليون دولار على هيئة قروض من عام ١٩٧٤م إلى عام ١٩٨٩م ثم تحولت هذه القروض بعد ذلك إلى منح لا ترد، ناهيك عن المعونات غير الحكومية، أو ضمانات القروض الحكومية أو التي تقوم بها البنوك الأمريكية لصالح إسرائيل.

وأمريكا التي لا تطيق أن ترى مصنعاً للكيماويات في العالم العربي حتى ولو كان ينتج مبيدات للحشرات هي ذاتها التي تشجع وتساعد وتتجاهل قيام إسرائيل بصناعة القنابل النووية وكافة أسلحة الدمار الشامل.

لماذا كل هذا الدعم والحماس لإسرائيل، مع أنها على حد تعبير نيكسون ليست مكسبا استراتيجيا لأمريكا؟!

إن ذلك يرجع لسبب بسيط جداً وهو وجود تحالف عنصري بين اليهود والأمريكان والغرب موجه ضد المسلمين، أي تحالف صليبي يهودي ضد الإسلام، وذلك في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الصليبية، بل إن هناك تفسيراً صهيونياً للمسيحية ينتشر بصورة متزايدة يوماً بعد يوم وخاصة في أوساط البروتستانت، ويقول هذا التفسير: إن دعم إقامة إسرائيل وتحقيق إمبراطوريتها من النيل إلى الفرات هو واجب مسيحي؛ لأن هذا الوجود والتوسع الإسرائيلي شرط لظهور المسيح في فلسطين وقيامه بقيادة الجيوش المسيحية في معركة ضد الكفار «المسلمين» وهي المعركة المذكورة في الإنجيل «المحرف طبعاً» تحت اسم معركة «هرمجدون».

أما على مستوى المسيحيين الكاثوليك، فإن الموالاة والتحالف مع اليهود يشق طريقه الآن على قدم وساق، فبابا الفاتيكان مثلاً - وعلى خلاف كل التراث الكاثوليكي - أعلن تبرئة اليهود من دم المسيح!

وبابا الفاتيكان نفسه يعلن الآن أنه لا يمانع في الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية زيارة الأماكن المقدسة، وحتى أسبانيا التي طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسمياً عن ذلك لليهود، وطبعاً لم تعتذر للمسلمين!!

على أية حال فإن التحالف المسيحي اليهودي أمر جديد ولم يحدث إلا في القرون الأخيرة، لأن التاريخ بين اليهود والمسيحيين تاريخ مفعم بالصدام، ولقد تعرض اليهود للعديد من المذابح والاضطهادات الدينية المسيحية في كل الدول المسيحية الأوروبية بدون استثناء، على أن هذا التحالف الجديد كان قد تنبأ به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وهذا نوع من الإعجاز القرآني: -

يقول الله تعالى في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

ونظراً لأنه كان هناك عداء مستمر واضطهاد من المسيحيين لليهود على طول التاريخ فإن المفسرين القدماء كانوا يفسرون هذه الآية في إطار أن الكفر ملة واحدة، أي تفسيراً إجمالياً دون أن يجدوا أو يذكروا تفاصيل محددة لهذه الموالاة، أما الآن فقد تحققت هذه النبوءة القرآنية وخاصة بعد دعم قيام إسرائيل من الغرب المسيحي واستمرار هذه الموالاة والدعم بين الطرفين في أكثر من مجال، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بصورة محددة تفصيلية، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

أما موقفنا الآن كمسلمين من هذه الموالاة بين اليهود والنصارى فيحددها الله تعالى لنا من خلال القرآن الكريم أيضاً في هذه الآية وما بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾[1].. و ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[2].. و ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾[3].

أي هؤلاء الذين يقولون الآن نحن لا نستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ونخشى أن يدمرونا بأسلحتهم!.

الآية (٥١)

التعصب الأوروبي الصليبي!!

منذ أن سطع نجم الحضارة الإسلامية ـ كحضارة عظيمة تحمل قيماً كريمة وتسعى لإسعاد البشر، وتحقيق مجتمع العدل والحرية والانحياز إلى المستضعفين- وهي في حالة صراع دائم ومستمر ضد القوى الشيطانيّة المتربصة بها، وعلى رأس تلك القوى الشيطانية كانت الحضارة الأوروبية التي لم تترك جريمة إلا وارتكبتها في حق البشرية. بدءاً من قهر الإنسان وقمعه، وانتهاءًا بنهبه وسلب ثرواته.

الحضارة الأوروبية حضارة إغريقية وثنية ذات قشرة مسيحية[1]، وقد أنتجت هذه الخلطة العجيبة بين الوثنية الإغريقية وبين القشرة المسيحية- أنتجت الروح الصليبية التي تتسم بها الحضارة الأوربية في مواجهة الأمة الإسلامية.

الحضارة الإسلامية بما تتسم به من عدل وتسامح وحرية ـ هي التي أنتجت أمثال عمر بن عبد العزيز الذي أمر بهدم جزء من المسجد ورده إلى الكنيسة. وحتى في لحظات ضعف الحضارة الإسلامية- نجد أن رجلاً مثل الأمير عبد القادر الجزائري، وهو الذي عانى شخصياً، وعانت معه بلاده الجزائر من المذابح والمجازر والنهب والقمع الاستعماري الصليبي الفرنسي ـ نجده هو نفسه يحمي نصارى لبنان أثناء نفيه في دمشق سنة ١٨٦٠ فيما عُرف بطوشة النصارى[2].

وهي الحضارة التي أنتجت أمثال الشيخ الباجوري شيخ الأزهر في عهد عباس باشا الأول ـ ذلك الشيخ الذي رفض الإفتاء بنفي بعض النصارى في السودان عندما طلب عباس الأول ذلك، وقد قال الشيخ الشجاع: «إنه لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر»[3].

أما الحضارة الأوروبية الصليبية فهي حضارة مجرمة. أليست هي التي أبادت الهنود الحمر في أمريكا؟ أليست هي التي مارست عمليات الخطف، والاستعباد، والاسترقاق

لأهالي أفريقيا؟ وقتلت منهم (٤٥) مليوناً يوم أن كان سكان إنجلترا مثلاً ثلاثة ملايين؟.

أليست هي الحضارة التي ذبحت خمسة ملايين جزائري في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ - ١٩٦٢؟. أليست هي الحضارة التي زرعت الكيان الصهيوني في فلسطين؟ الحضارة الأوروبية حضارة مجرمة بكل إفرازاتها السياسية والفكرية. الرأسمالية والاشتراكية. الملكية والجمهورية. الليبرالية والاشتراكية الديمقراطية. فعلى سبيل المثال عانى شعب الجزائر معاناة شديدة على يد الملكيين والجمهوريين على السواء، على يد المحافظين والليبراليين الفرنسيين على السواء. بل كانت معاناته تصل إلى ذروتها في فترات الحكم الاشتراكي في فرنسا.

ففي سنة ١٩٤٠ مثلاً نفذت السلطات الفرنسية مذبحة كبيرة في أهالي الجزائر، وقتلت منهم في يوم واحد أكثر من (٤٥ ألفاً) ـ بل وقام الطيران الفرنسي بحرق قرى جزائرية كاملة. وكان يحكم فرنسا في ذلك الوقت الاشتراكيون الديمقراطيون، بل إن وزير الطيران الذي أمر بدكّ القرى الجزائرية وإحراقها كان وزيراً شيوعياً. وهكذا فإن الحضارة الغربية الأوروبية الصليبية لم تفرز إلا كل ما هو حقير ومجرم. ألم تفرز الشيوعية والفاشية والنازية؟ بل إن كل هذه الإفرازات السياسية والمدارس الفكرية المختلفة تتناسى خلافاتها الأيديولوجية والسياسية والفكرية وتظهر على حقيقتها ـ تظهر روحها الصليبية عندما يكون الأمر خاصاً بالعالم الإسلامي أو أحد شعوبه.

وإذا كانت الرأسمالية والشيوعية قد أُصيبتا بالإفلاس، وأصبحت سمعتهما سيئة للغاية؛ فإن المثقفين المغتربين في بلادنا يحاولون الآن تحسين سمعة الحضارة الغربية، وترويج بضاعتها لدينا عن طريق التبشير بإحدى إفرازاتها وهي الاشتراكية الديمقراطية.

ووصل الأمر إلى عقد أحد مؤتمرات هذه الاشتراكية الديمقراطية في مصر ١٩٩٠ - ويتناسى هؤلاء أن الأفعى لا تلد إلا ثعباناً. بل إن حقائق التاريخ القريب تؤكد أن بلادنا

عانت أكثر المعاناة على يد هذه الاشتراكية الديمقراطية بالتحديد.

ألم تقم حكومة فرنسا الاشتراكية الديمقراطية بأبشع المذابح في الجزائر؟ بل ومارس هؤلاء المنتمون إلى الاشتراكية الديمقراطية الفرنسية أبشع أشكال التعذيب والاستنطاق في السجون الجزائرية- بل وابتكروا أساليب شديدة الهمجية سُجل اختراعها باسمهم مثل الإقعاد على قارورة زجاجية مكسورة، وغيرها من وسائل التعذيب الوحشية. ألم تتلق إسرائيل الدعم دائماً وأبداً من الاشتراكية الديمقراطية الدولية؟ بل إن حكومة إسرائيل في معظم الفترات تنتمي إلى حزب العمل الإسرائيلي، وهو العضو النشط في الاشتراكية الديمقراطية الدولية.

ألم تتعرض مصر سنة ١٩٥٦ إلى عدوان ثلاثي شاركت فيه ثلاث حكومات اشتراكية هي حكومة العمال البريطانية، وحكومة الحزب الاشتراكي الفرنسي، وحكومة حزب العمل الإسرائيلي؟.

يخطئ من يظن أن الحروب الصليبية هي تلك الحروب التي شهدها الشرق العربي منذ ١٠٩٨م وحتى ١٢٩٥م، بل الحقيقة أن الصراع مع أوروبا الصليبية امتد في الزمان والمكان قبل ذلك وبعد ذلك. ففي بلاد المغرب العربي امتد الصراع قبل ذلك، واستمر أكثر من ألف عام، ولا يزال مستمراً، بل إن الجزائريين يُطلقون عليها حرب الألف عام. وهي حرب استمرت بين أوروبا الصليبية ـ البرتغال ـ إسبانيا ـ إنجلترا ـ فرنسا ـ ألمانيا وبين بلاد المغرب العربي وخاصة الجزائر بين كر وفر إلى أن انتهت باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠.

وفي الشرق كانت تركيا تخوض حروب الإسلام ضد أوروبا الصليبية وفي قلب أوروبا ذاتها، واستطاعت أن تخضع معظم القارة الأوروبية للنفوذ الإسلامي التركي - إلى أن عادت أوروبا فاستطاعت أن تحيك المؤامرات ضد الخلافة العثمانية ونجحت في إسقاطها سنة ١٩٢٤.

وقد استخدمت أوروبا الصليبية في صراعها مع الحضارة الإسلامية في المرحلة الأخيرة عدداً من التكتيكات والأساليب الشيطانية في سبيل السيطرة على الأمة الإسلامية وتدمير الحضارة الإسلامية، منها التطويق البحري عن طريق الكشوف الجغرافية، ومنها إرساليات التبشير المسيحية الأوروبية.

ومنها زرع مدارس الفكر الأوروبي والغربي في بلادنا عن طريق مؤسسات وأحزاب وصحف ومراكز إعلامية، ومنها الاحتلال العسكري، وهي ذات الخطة التي رسمها لويس التاسع أثناء سجنه في المنصورة إبان الحملات الصليبية، وفي الحقيقة فإن الهدف الأوروبي الصليبي في القضاء على الحضارة الإسلامية يتضمن أيضاً القضاء على كنائس الشرق باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية، وخاصة القضاء على الكنيسة القبطية المصرية باعتبارها جزءاً أصيلاً من التراث الحضاري والثقافي الإسلامي، وباعتبارها كنيسة متميزة ومستقلة عن الكنائس الأوروبية.

إذن عندما يتحدث المفكرون الإسلاميون في الوطن العربي عن التعصب الأوروبي الصليبي. فإن هؤلاء لا يعكسون تعصباً إسلامياً - بل هم يقرّرون واقعاً مرئياً لكل ذي عينين؛ بل هؤلاء الذين يتجاهلون الحقائق هم الذين يخفون تعصبهم - ولكن هؤلاء الذين يصفون الواقع كما هو ليسوا متعصبين - إذ لو كانوا متعصبين لحاولوا إخفاء تعصبهم. نعم - عندما يتحدث الأفغاني أو النديم أو عرابي - أو مصطفى كامل أو محمد فريد أو حسن البنا أو أي زعيم وطني عن التعصب الأوربي الصليبي، وعندما يدعون إلى التمسك بالثقافة والحضارة الإسلامية، وعندما يحشدون الجماهير لمواجهة الغزوة الأوربية على بلادنا، فإنهم في الحقيقة يدافعون عن الكنيسة القبطية أيضاً - وعن التراث القبطي أيضاً، لأن الكنيسة القبطية تنتمي إلى الحضارة الإسلامية؛ ولأن التراث القبطي جزء لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية. وإذا كانت إرساليات التبشير تستهدف تنصير المسلمين. أو زرع أنماط التفكير الغربي في بلادنا -

أو العمل كطابور خامس لصالح الاستعمار، وإذا كانت إرساليات التبشير قد ارتبطت بالاستعمار أيّما ارتباط. فهي إما أن تكون طلائع له، أو تأتي في ركابه لتدعيم موقفه ونشر أهدافه والعمل على تهيئة الأجواء لصالح المشروع الاستعماري، فإنها أيضاً استهدفت تذويب الكنيسة القبطية في مصر وتبشير أبنائها، ومحاولة تحويلهم إلى الكنائس الأوروبية البروتستنتية والكاثوليكية، ومحاولة اختراق المجتمع عن طريق التلويح بالمشروع الحضاري الغربي للأقباط.

إلا أن تلك المحاولات وجدت من يتصدى لها من الأقباط وخاصة البابا كيرلس الخامس الذي أنشأ مطبعة خصيصاً للردّ على شبهات ومحاولات إرساليات التبشير بين الأقباط، بل دعا إلى مقاطعة المدارس التابعة لإرساليات التبشير، واعتبر كل من يدعم تلك المدارس خارجاً على الكنيسة القبطية[٥].

الهامش:

١. من الأمور المثيرة للتأمل أن مراسم تنصيب بابا روما هي نفسها مراسم تنصيب كهنة المعابد الوثنية الإغريقية القديمة.

٢. بسام العسلي ـ عبد القادر الجزائري ـ دار النفائس ـ بيروت

٣. ميخائيل شاروبيم ـ الكافي.

٤. محمد خليفة ـ أحمد بن بيلا ـ حوار معرفي شامل.

٥. طارق البشري ـ المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية.



الإسلام والغرب.. تعاون أم مواجهة ؟

هناك الآن أكثر من اتجاه بشأن العلاقة المفترضة بين الإسلام والغرب أو الإسلام وأمريكا باعتبارها الممثلة الكبرى للحضارة الغربية.

فهناك الغرب وأمريكا وبعض القوى المحلية عندنا تدعونا إلى الالتحاق بالركب الحضاري الغربي والاندماج في الحضارة الغربية والتخلي عن ديننا وحضارتنا وقيمنا أو على الأقل قصر علاقتنا بديننا على العبادة الفردية والضمير وهؤلاء يقولون إنه قد ثبت أن الحضارة الغربية حضارة عظيمة ويجب أن تسود العالم، أو يقولون إنه لا أمل ولا فرصة للمواجهة ومن الأفضل أن ننصاع لها، وهؤلاء بالطبع منافقون ومخادعون فلا الحضارة الغربية حضارة عظيمة، ولا هي حضارة ذات أخلاق، ولا هي قدر مقدور لا يمكن الفكاك منه، هؤلاء بالتحديد يدعوننا إلى الاستمرار في أداء دور الضحية والذبيحة خاصة بعد أن شحذ الجزار سكينه وأصيب الآكلون بنهم شديد، وفضلاً عن أننا سنكون مجالاً للنهب فإنهم يطلبون منا أن نتخلى عن قيمنا وذاتيتنا ومبادئ ديننا وحضارتنا وهذا بالطبع مرفوض.

واتجاه آخر يقول بأن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض أو تتزاوج وإن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أي أنها استفادت من كل الحضارات التي سبقتها وتفاعلت وتزاوجت معها وخرجت في النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها، وهذا الرأي خطير وبراق ولكنه خطأ، ولكي نعرف أنه خطأ ينبغي علينا أن نفرق بين أمرين أحدهما التفاعل والتزاوج والآخر التعاون فالتفاعل والتزاوج لا يتم إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل الحضارة الرومانية واليونانية والإغريقية والجرمانية والسكسونية وهكذا.. وهذا التفاعل والتزاوج لا يتم بين حضارات من عائلات مختلفة، أي مختلفة نوعًا وكميًا، فلا يمكن مثلاً الحديث عن تمازج وتزاوج حضاري بين حضارة تقوم على الوثنية كالحضارة الغربية وأخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية، والأمر هنا أشبه

بعمليات التطعيم التي تتم في النباتات، فلابد لكي تنجح عملية التطعيم هذه أن تكون بين أنواع معينة من النباتات تنتمي إلى عَائلة واحدة، أو عائلات متقاربة، ولكن هذا التطعيم يفشل تمامًا إذا ما تم بين شجرتين لا تنتميان إلى عائلة أو عائلات نباتية متقاربة.

وفي الحقيقة فإن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل، لأن أي دراسة متعمقة للأساسيات التي قامت عليها كل من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية لا تترك مجالاً للشك في أن لكل منهما طريقًا مختلفًا وسياقًا خاصًا، لهذا يهدف الحديث عن التواصل الحضاري أو التفاعل الحضاري أو التزاوج الحضاري إلى الإلحاق والتبعية الحضارية باعتباره جزءًا أساسيًا في عملية الإلحاق الاقتصادي والثقافي والسياسي والسيطرة العسكرية.

وينبغي في هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط، فالداعون إلى الاندماج في الحضارة الغربية، ينسون نقطة أساسية وهي أن الحضارة الغربية لن تقبل الاندماج بها وأن يصبح غيرها جزءًا منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية معها، إنهم فقط يعنون بالاندماج أن نظل تابعين وأن نظل مجالاً للنهب دون مقاومة، ففرنسا مثلاً التي أدمجت الجزائر فيها وجعلتها جزءًا من فرنسا لم تقبل أن تعطي الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلاً ولم تقبل أن يكون لهم نفس حقوق الانتخاب التي للفرنسي مثلاً !

والداعون إلى التزاوج والتفاعل الحضاريين مع الحضارة الغربية ينسون الظروف المشبوهة التي ظهرت فيها مثل هذه الدعوة، فهذا الموضوع لم يطرق بعيدًا عن غايات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الاستعمارية والشعوب المقهورة والمستضعفة، فعندما طرح مفكروا أوروبا هذا الموضوع كانوا في أغلبهم يرمون إلى سيادة الحضارة الأوروبية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم ومعايير ومفاهيم، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوروبية وضرب الحضارات الأخرى، أو طمسها، أو الإنقاص من قدرها أو خلطها بما

يلغيها، وهو أمر يؤدي بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية، وإلى ضرب عوامل وجودها المادي والثقافي المستقل، فتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين ثم تتحول إلى تابع ذليل تلتقط الفتات، وتقف على العتبات، دون السماح لها بالدخول إلى صدر البيت.

والشيء الوحيد الممكن في العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون على أساس استقلال كل منهما وعلى أساس انفراد كل منهما بخصائصها الذاتية المتميزة دون أن تحاول السيطرة أو ظلم أو نهب الأخرى، والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون ويدعو إليه في إطار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئة، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية التخلي عن النهب والظلم والعنصرية والعنف من أجل هذا التعاون ؟

.. لنأخذ مثلاً مجال العلوم الطبيعية، وهذه الأطروحة تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم في اتجاه معين أي لإنتاج سلعة ضرورية مثلاً أو كمالية، للقضاء على مرض أو لنشر مرض ! لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها.

أي أن هناك شقًا علميًا وشقًا قيميًا، والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علمياً كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعيًا لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين، لأن حبس العلم جريمة في الفقه الإسلامي، أما الحضارة الغربية فإنها عندما تقدمت علمياً استخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر وسائل النهب وقهر الشعوب الأخرى وظلمها بل إنها أيضاً تحجب العلم عن الشعوب الأخرى، بل وتحاكم من يجرؤ على نقل شيء منها لبلاده « قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً » بل تغتال كل من ينجح علمياً في البلاد الأخرى.

على أية حال من الناحية النظرية يمكن التعاون في الاستفادة من العلوم الطبيعية ونقلها دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها أي في الشق العلمي دون الشق القيمي، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك وهي التي تغتال العلم، وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلك، بل وتضرب أي نهضة علمية في أي مكان خارج دائرتها الحضارية ؟ !

نؤكد مرة أخرى أن الإسلام يحض على التعاون، ويحرص عليه، ولكن التعاون ليس الاندماج والتزاوج والإلحاق، التعاون يقوم على استقلال حضاري كامل فالحضارة الغربية عندما نقلت العلوم الطبيعية من الحضارة الإسلامية أخذتها دون شقها القيمي أخذتها وهضمتها ووجهتها وفقًا لمعاييرها الحضارية، وجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب، أما نحن فمن المفروض أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغرب دون شقها القيمي فنهضمها وتصبح جزءًا من شخصيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقًا لمعاييرنا وقيمنا الحضارية في إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر وليس لنا وحدنا.

هل هناك فرصة للتعاون مع الغرب ؟

قلنا: إنه لا يمكن ولا نقبل لا الإلحاق الحضاري مع الغرب ولا التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية لانتمائهما إلى عائلتي حضارتين مختلفتين ولأن هذا في النهاية يعني التحول إلى تابع ذليل يظل خاضعًا للنهب والسيطرة. وقلنا إن العلاقة الصحيحة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية هو التعاون على أساس الاستقلال الحضاري الكامل والشخصية الحضارية المستقلة، ولكن هل هناك فرصة للتعاون ؟.. هل يقبل الغرب هذا التعاون ؟.. هل تاريخنا معه يسمح بذلك ؟.. هل تركيب الحضارة الغربية يسمح بذلك ؟..

إن تركيبة الحضارة الغربية تقوم على النهب والقهر والعنصرية. ورخاء ورفاهية أهل الحضارة الغربية جاء من نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها، ولكي تستمر هذه

الرفاهية لابد أن يستمر النهب والقهر، فهل أهل الحضارة الغربية مستعدون للتوقف عن النهب والقهر والعنصرية ؟ هل هم مستعدون للتخلي عن رفاهيتهم القائمة على ثروات الآخرين من أجل التعاون معنا أو مع غيرنا ؟

أعتقد أن ذلك صعب، بل يبدو مستحيلاً، وبالتالي فإمكانية التعاون بشروطها الصحيحة صعبة أيضًا، بل وتبدو مستحيلة وحتى إذا حدثت المعجزة وتخلى أهل الشمال عن القهر والعنف والعنصرية فماذا يبقى من الحضارة الغربية ؟ إنهم يسقطونها تمامًا، إنهم يفقدونها سماتها الأساسية، أي يقبلون الاندماج في نمط حضاري آخر وفي حالة دخولهم في النمط الحضاري الإسلامي مثلاً، فإننا لن نعاملهم معاملة التابع، بل معاملة الإسلام التي تقول أنهم أصبحوا مثلنا تمامًا لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وإذا كانت تركيبة الحضارة الغربية لا تسمح بالتعاون إلا بانتفاء خصائص الحضارة الغربية ذاتها، وبالتالي فالتعاون هنا صعب ويكاد يكون مستحيلاً، ورأي أهل الحضارة الغربية فينا وموقفهم منا لا يسمح بقيام مثل هذا التعاون، فهم ينظرون إلينا نظرة صليبية عنصرية حاقدة لا تقبل بأقل من تدمير حضارتنا تمامًا وفي قول لا يخلو من الدلالة يقول المعلق السوفييتي فاسييليف:

« إن أمريكا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة التي حلت محل الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان إمبراطورية الشر القديمة والتي تركزت كل الجهود الأمريكية خلال أكثر من أربعين عامًا للقضاء عليها ».

وهذا المعلق السوفييتي المشهور فاسييليف استخدم هذه الحقيقة ونفس المصطلح المستخدم دائمًا من قبل الأوروبيين والأمريكيين تجاهنا، فالبابا أربان الثاني الذي فجر الحروب الصليبية قال في مجمع كلير مونت في سنة ١٠٩٥:

« إن إرادة الرب تحتم على المسيحيين تخليص بيت المقدس من أيدي إمبراطورية

الشيطان ». وعندها خر الكهنة الحاضرون راكعين تحت قدمي البابا !

والبارون دي كارافو يقول: « أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامي وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية الانقسامات السياسية والعرقية.. دعونا نمزق الإسلام بل نستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية.. وذلك لكي نضعف الإسلام، لنجعله عاجزًا إلى الأبد عن صحوة كبرى » [١].

ويقول يوجين روستو اليهودي: « إن الحوار بين المسيحية والإسلام كان صراعًا محتدمًا على الدوام، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامي للتراث المسيحي وتركت هذه آثارها البعيدة في المجتمعات الإسلامية » [٢].

يقول لورانس براون: « لقد كنا نخاف من شعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررًا لهذا الخوف، لقد كنا نخاف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر وبالخطر البلشفي إلا أن هذا الخوف كله لم نجده كما تخيلناه، لقد وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مُضطهِد لهم عدونا اللدود، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصُفر « الصين، اليابان » فإنهم ليسوا خطيرين لهذه الدرجة، ولكن الخطر الحقيقي كان في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي » [٣].

ويقول مورو بيرجر في كتابه « العالم العربي » : « لقد ثبت تاريخيًا أن قوة العرب تعني قوة الإسلام فليدمَروا بتدميرهم الإسلام » [٤]

---

(١) مروان بحيري – الدراسات الاستعمارية في الإحياء الإسلامي في القرن ١٩.

(٢) نقلا عن عبد الوارث سعيد « أمتنا والنظام العالمي الجديد ».

(٣) د. مصطفى الخالدي.. د. عمر فروخ – التبشير والاستعمار.

(٤) جلال العالم – قادة الغرب يقولون – المختار الإسلامي.

ويضيف مورو بيرجر: « إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام، ويجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب، لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره »[١]

ويقول ج. سيمون: « إن الوحدة الإسلامية تجمَع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية »[٢]

ويقول سالازار دكتاتور البرتغال السابق: « إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم »! ولما سأله أحد الصحفيين: ولكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم عنا.. أجابه: « أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا »[٣].

ويقول ريتشارد هرير دكمجيان: « إن قلة فقط خارج نطاق العالم الإسلامي كانت قادرة على توقع انبعاث إسلامي في البيئة المعاصرة وإن ضعف البصيرة في مجال التصور الذي أحدثته المادية الغربية والماركسية قد أعمى بقوة كل العلماء ورجال الدين الذين مالوا إلى استبعاد قوة الإسلام أو التقليل من شأنها »[٤].

ويحذر المفكر الألماني باول شمتز قائلاً: « سيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق، عوداً على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية، وستثبت هذه القوة وجودها،

---

(١) محمد محمد الدهان – قوى الشر المتحالفة – دار الوفاء.

(٢) د. عمر فروخ – مرجع سابق.

(٣) جلال العالم مصدر سابق.

(٤) ريتشارد هرير دكمجيان – الأصولية في العالم العربي – ترجمة عبد الوارث سعيد – دار الوفاء.

إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية »[1].

ويقول المفكر الإنجليزي هيلد بيلوك: « لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكًا قويًا، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائها » .

وما بين الحقد على الإسلام، وكراهيته، والدعوة إلى تدميره والقضاء عليه أو التخويف منه ومن خطره وغيرها من الأفكار التي تسود الروح الفكرية الأوروبية على اختلاف مدارسها هل هناك فرصة للتعاون بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ؟.. الإجابة: هذا صعب بالطبع.

وإذا تركنا كل ما سبق والتفتنا قليلاً إلى التاريخ، نجده مفعمًا بالصراع الدامي الذي خاضته الحضارة الأوروبية ضد الإسلام للقضاء عليه وخاضه الإسلام دفاعًا عن نفسه ونشرًا لقيمه وإنقاذاً للعالم من الظلم والطغيان.

خاض الإسلام معارك شرسة ضد الحضارة الأوروبية المتوحشة منذ اللحظة الأولى واستطاعت جيوش الإسلام أن تنتصر في اليرموك وعمورية وحطين، ثم بدأت أوروبا تستعيد المبادرة فظهرت الحروب الصليبية بدءًا من سنة ١٠٩٥ وحتى ١٢٩٤ في المشرق العربي أما في المغرب العربي فإن الإسلام استطاع أن يفتح أفريقيا والأندلس.

واستمرت المعارك مع الحضارة الغربية في الأندلس ثمانية قرون وفي بلاد المغرب العربي ألف عام قبل دخول الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الأندلس، ولم يتوقف الصراع مع الحضارة الغربية لا في الشرق ولا في الغرب، ففي الشرق ظهرت الخلافة العثمانية واستطاعت أن تنقذ العالم الإسلامي من السقوط، ودخلت في معارك طاحنة

---

(١) باول شمتز – نقلا عن عبد الوارث سعيد – أمتنا والنظام العالمي الجديد.

مع أوروبا انتهت بفتح القسطنطينية ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح، بل وانتشرت جيوش الإسلام في أوروبا ومرة أخرى تعاود أوربا الهجوم، وتعرضت الخلافة العثمانية إلى ضغط رهيب انتهى بسقوطها، وقبل ذلك بقليل بدأت أوروبا حملتها الصليبية الثانية على العالم الإسلامي والمسماة باسم الاستعمار بدءًا من هجوم نابليون ١٧٩٨ وانتهاءً بسقوط معظم بلاد العالم الإسلامي في قبضة الاحتلال الأوروبي، وفي المغرب العربي ظلت أوروبا ترسل حملاتها الصليبية إلى المغرب بعد سقوط الأندلس، فتعرضت الجزائر وحدها إلى ١٠٠ حملة صليبية في أقل من ٣٠٠ عام بعضها برتغالي والآخر فرنسي، أو إنجليزي، أو أسباني، أو ألماني أو بلجيكي بل وحتى أمريكي وانتهى الأمر بسقوط الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي ١٨٣٠ ثم تبعتها المغرب وتونس.

إذن فبرغم أننا لا نرفض التعاون مع الحضارة الأوروبية في إطار الاستقلال الحضاري لكل منا، إلا أنه لا التركيبة الحضارية الغربية تسمح بذلك ولا رأي قادتها فينا وأهدافهم تجاهنا تسمح بذلك، ولا تداعيات التاريخ القديم والحديث تسمح بذلك، وبالتالي لكي نعيش لا نخضع ونذوب وننتهي لابد من المواجهة.

حرب شاملة في مواجهة حرب شاملة

إذن فالمعركة حتمية، ولا سبيل هناك إلا المواجهة، أو الموت، وحتى المواجهة مع الهزيمة ربما تعطينا الفرصة في الصمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود من جديد لتثمر في مرحلة أخرى، ولكن الانصياع والخضوع لا يعني فقط خسائر هائلة في الحاضر بل يعني تدمير المستقبل، لأنها تطال البذور الكامنة تحت التربة.

والمعركة هنا معركة حضارية شاملة، أي سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والغرب يستخدم معنا كل الوسائل السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية أيضاً، وما دام الغرب يشن علينا حربًا شاملة فلا بد من مواجهته

بحرب شاملة، مواجهته بالكفاح وحتى إذا سلمنا بصحة رأي هؤلاء وهو أن الغرب وأمريكا أقوياء بدرجة لا يمكن مواجهتها، فإن النتيجة التي توصلوا إليها خطأ، لأن معنى مثل هذه القوة الهائلة للغرب وأمريكا أن الخضوع لهم سيؤدي إلى النهاية والموت والاندثار، وأن الخضوع لن ينقذنا ولن يحقن دمائنا، بل إن الخضوع سيتسبب في خسائر أكثر من المواجهة حتى ولو كانت غير متكافئة، على الأقل فالمواجهة سوف تقلل الخسائر وسوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء، بعيدًا عن يد الغرب فتعود لتثمر في فرصة أخرى مستقبلية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير من نقاط الضعف التي ينبغي الصمود أمامها واستثمارها أو الصمود وانتظار أن تؤدي تلك المواقع الضعيفة في جسد الحضارة الغربية إلى انفجار داخلي، فالإنسان في الحضارة الأوروبية مثلاً يفتقد التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقد التوازن في علاقاته مع الجماعة، وهذا يؤدي إلى انتشار الأمراض النفسية والجريمة والانحراف والشذوذ الجنسي وزيادة استهلاك الخمور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من سكان أوروبا وأمريكا وهو ما يمكن أن يؤدي على المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية من داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة في تحقيق أقصى قدر من النهب وبالتالي عدم التورع عن استعمال أقصى قدر من العنف ومع تزايد قوة الأسلحة الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف مما يجعلها في النهاية قابلة للانفجار من داخلها أو بالتصادم مع بعضها البعض وإذا كانت الحرب العالمية الثانية التي نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمي إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل ٦٢ مليون إنسان معظمهم من الأوروبيين فكم يا ترى سوف يقتل في المعركة المسلحة والحرب الشعبية، وعلينا أن نواجه الغرب بالوسائل السياسية ونواجهه برفض الخضوع لوسائل النهب التي يمارسها ومن خلال بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ويعتمد على

قوانا الذاتية ويقطع تمامًا خيوط التبعية مع الغرب، ونواجهه أيضاً بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة وكل أشكال الاختراق الثقافي، ونواجهه بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية، ونواجهه بالوحدة، ورفض التجزئة التي فرضها علينا، ونواجهه بتعبئة شعبية شاملة، ونواجهه بحرب حضارية شاملة في مواجهة حرب حضارية شاملة.

ويجب أن ننتبه هنا إلى نقطة خطيرة، وهي أن أخطر هذه المواجهات هي على الجانب الثقافي، لأن الاختراق الثقافي يدمر حياتنا من الداخل ويقلل قدرتنا على المواجهة ويضرب فينا قيمنا الإيجابية مثل الجهاد والوحدة والرفض وبالتالي يجعلنا عاجزين عن المواجهة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولابد أن ننتبه إلى أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلاً أن نستخدم قيمًا ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها ومهما كانت براقة فإنها لن تجدي في مواجهته، فكيف أواجهه على أرضيته الثقافية والحضارية ؟، لابد أن أواجهه بأساليب وتكتيكات وقيم ووسائل واستراتيجيات مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الاستمرار.

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب وأمريكا وأن توازن القوى مختل تمامًا لصالحهم وأنه لا داعي للمواجهة لأنها لن تفيد وأنه من الأفضل الخضوع أو البحث عن سبيل للتفاهم، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقًا لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط، مع العلم أن القدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلى مثيلتها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرغبة في الربح بدون وازع أخلاقي ولا مراعاة للتوازن البيئي يمكن أن تؤدي إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله.

ويلخص الأستاذ منير شفيق في كتابه: « الإسلام في معركة الحضارة » نقاط الضعف في الحضارة الغربية كالتالي:

١ - التطور العام غير المتوازن بالنسبة إلى مختلف المجالات، فقد تكثّف في المجالات المادية واختل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية مما يؤدي في النهاية إلى الإسراع بسقوطها لأن حالها يصبح كحال الذي يقف على قدم واحدة، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلى هزة قوية.

٢ - اتسعت الهوة بين أصحاب تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبل لها بها، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنت تظل ضعيفة أمام قوة الأغلبية المظلومة صاحبة الحق، فالتضاد مع حقوق غالبية الشعوب ومصالحها يؤدي إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن.

٣- التآكل الداخلي يشكل سمة أساسية مميزة لمجتمعات الحضارة الإفرنجية سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع منفردًا أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها، إن الصراع على امتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يؤديان بالإسراع بعملية التآكل الداخلي.

٤ - إن إطلاق الغرائز والنزعات البهيمية وانتشار الفساد والانحلال قد يصل في تلك الحضارة إلى ضعف داخلي شديد يجعلها غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها المادية، مما قد يكرر صورة الجندي الروماني الذي رُبط بالسلاسل لكي لا يفر في معركة اليرموك، على الرغم من الكثرة العددية للرومان في تلك المعركة، وقوة دروعهم، وطول رماحهم ومضاء سيوفهم وفراهة خيولهم.

وقد يقول قائل: إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج نقاط ضعفها أو تتخلص منها وبالتالي تجدد نفسها، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية وطبيعة وجوهر نقاط الضعف فيها، لأن نقاط الضعف هنا هي من صميم وجوهر الحضارة الغربية وليس عارضًا عليها ولا ناشئاً من عوامل جانبية أو إهمال من القواد أو غيرها إنها تنبع من داخلها ومن صميمها بطريقة تلقائية وحتمية بحيث أنه من المستحيل عليها معالجتها

أو التخلص منها، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك العيوب فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها.

فمثلاً إن السعي لتحقيق أقصى درجات القوة العنيفة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدوس على كل القيم والمعايير التي تتعارض مع هذا السعي، أو بتعبير آخر إن ذلك السعي يسخر كل شيء من أجله، وهذا في حد ذاته يسمح بالتفوق في مجالات محدودة، وهذه نقطة قوة أساسية في الحضارة الغربية، وهي أيضاً سبب انهيارها المتوقع في مجالات أخرى، المجالات الأخلاقية والنفسية والإنسانية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية مما يشكل بدوره نقطة الضعف المركزية في هذه الحضارة، إن نقطتي القوة والضعف المتولدتين عن تلك السمة الأساسية في الحضارة الغربية سيصلان في نهاية المطاف إلى تدميرها إن لم يعرضا مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب من شبه الإبادة الجماعية.

ومثل آخر: إنه إذا حاول نظام حكم عنصري التخلص من عنصريته، فإنه من الحقيقة يتخلص من نفسه، لأن العنصرية هنا هي التي شيدت بناءه وهي التي تسمح له بالاستمرار، فلولا النهب والاسترقاق والفصل العنصري لما كان هذا النظام العنصري قد نشأ ولما كان حقق لنفسه هذا الرخاء ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية.

استنساخ العقل الإسلامي على الطريقة الأمريكية

إذا كانت آلة العسكرية الأمريكية قد تحركت واستطاعت أن تدمر أفغانستان، والعراق، وتستعد للمزيد من التدمير لدول عربية وإسلامية أخرى، ناهيك عن التدمير عن طريق الوكيل الوحيد « إسرائيل » والذي أصاب ويصيب دول الجوار والفلسطينيين بالطبع، فإن آلة الإعلام والسياسة والاقتصاد تحركت بموازاة ذلك وقبل ذلك وبعده، وهكذا فنحن أمام حرب أمريكية شاملة تستهدف القضاء على أمتنا واستعادة استعمارنا استعماراً مباشراً، وكل هذا مفهوم، ولكن أخطر من الحرب والضرب محاولة تدمير الهوية عن طريق الغزو الثقافي والفكري الذي لا نستطيع صده أو رده، وأخطر منه محاولة تغيير مناهج التعليم في الدول العربية والإسلامية وهي آخر قلاعنا، ولو تم ذلك - لا قدر الله - لكان هذا بداية النهاية الحقيقية لأمتنا، لأن التعليم هو حجر الأساس في بناء الشخصية، والمطلوب - من وجهة نظرهم - مسخ هذه الشخصية والقضاء على تميزها العقائدي والفكري ومن ثم السياسي والثقافي والحصول بالطبع على نسخة إنسانية مشوهة من النموذج الأمريكي قابلة للتبعية لأمريكا، بل مدمنة لتلك التبعية وتقبل بدور التابع والخادم بسهولة، وهذا الكلام جزء من مشروع أمريكي واسع النطاق لإعادة صياغة العالم أمريكيّاً وتسوية النتوءات والتمايزات الثقافية والعقائدية للشعوب، وبالتالي يصبح العالم ممهداً للخضوع للهيمنة الأمريكية بدون مقاومة تذكر.

الأخبار تواترت عن تقديم الولايات المتحدة الأمريكية لعدد من المذكرات إلى الدول العربية والإسلامية تدعو إلى إعادة النظر في تدريس المناهج الدينية والتاريخية والثقافية، ورفع فكرة الجهاد والمقاومة، وتغيير كل ما يتصل بالتاريخ الإسلامي ضد الصليبيين أو الإسرائيليين، وكذلك رفع ما يتصل بأخلاق اليهود في القرآن الكريم، والدعوة إلى ما تسميه تلك المذكرات: التسامح الديني – وإن شئت سَمِّه: (الخضوع العربي) لأننا أصلاً أمة

التسامح، ولن يعلمنا الغرب التسامح، بل نحن الذين علمنا العالم هذا التسامح - وغيرها من المفاهيم المتصلة بالعولمة، وإذا أضفنا إلى ذلك التدخل الأمريكي في شئون الأقليات، وكذلك الاحتجاج على تجريم جريمة الشذوذ أو غيرها، لأمكننا أن نفهم ما هو المراد بنا.

بالطبع فإن تلك المطالب ليست جديدة، وحدث شيء منها إبان توقيع مصر اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨م والدخول في منزلق التطبيع مع الكيان الصهيوني، وكذا عندما تم تسلل الأمريكيين إلى مراكز البحوث التربوية والتعليمية في مصر عن طريق برنامج المعونات الأمريكي وتم تشويه عدد من المقررات الدراسية، وضغط ساعات اللغة العربية لحساب اللغات الأجنبية وكذلك تغيير المفاهيم وتسريب ما أمكن من المفاهيم المتأمركة، ولكن الجديد هو أن الطلب هذه المرة محدد ولا يلجأ إلى التسلل بل هو مطلب واضح وحاد وقطعي وإلا فالحرب ! ! والأمر شديد الخطورة بالطبع، ولا ننسى في هذا الصدد أن إسحاق شامير كان قد طالب بإلغاء كلمة الجهاد من القاموس الإسلامي « القرآن والسنة » وذلك في مؤتمر مدريد عام ١٩٩٢م في إطار الحديث عن عملية السلام المزعومة وكأن السلام لا يستقر إلا بإلغاء عقائدنا وتحريف نصوصنا الدينية الربانية والنبوية.

ويقال إن عدداً من الدول العربية قد استجاب – كنوع من الانحناء للعاصفة وسوف يتم مراعاة ذلك بالتدريج على حد قولهم، ونذكر هنا ما قاله المعلق الأمريكي الشهير توماس فريدمان: « من الآن وحتى السنوات العشر المقبلة سنعمل على استنساخ عقل إسلامي يفكر على طريقتنا نحن الأمريكان » .

وهكذا فنحن بصدد إظهار طبعة منقحة من الإسلام « الإسلام الأمريكي » يقوم به خبراء التربية والثقافة الأمريكيين بإعادة صيغة الإسلام على الطريقة الأمريكية، إسلام بلا رجولة ولا تميز ولا هوية، ولا روح مقاومة، وهو أمر يعني مباشرة حذف معظم آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الولاء والبراء، أو عن الجهاد والحرب والمقاومة، أو عن

بني إسرائيل، وكذلك إلغاء تاريخنا الذي عشناه وعرفناه، والذي يشكل الغزو والتحدي الصليبي الغربي جزءاً كبيراً منه، ليس فقط في الحملات الصليبية على الشرق من ١٠٩٨ م - ١٢٩٥م، أي تلك التي حدثت طوال ٢٠٠ عام على فلسطين والشام ومصر وتونس بل أيضاً في كل المواجهات في الأندلس وفي المغرب العربي « حرب الألف عام » ، ثم المواجهة في قلب أوروبا « الدولة العثمانية » وعلينا أن نسقط من ذاكرتنا بالتالي صلاح الدين الأيوبي وعماد الدين زنكي، بل وخالد بن الوليد ومحمد الفاتح.

هذا المطلب الأمريكي لن يكون الأخير بالطبع، وبالتالي فرفضه وتحمل نتيجة ذلك سيكون أفضل من القبول به ومحاولة الالتفاف عليه، لأن هذا المطلب ستتبعه مطالب، بإلغاء جامعة الأزهر مثلاً، والزيتونة والقرويين وفاس، أو الخضوع لنوع من التفتيش على خطب الجمعة والعيدين، أو إلغاء المدارس الدينية والجامعات الدينية عموماً، وفي مرحلة لاحقة محاولة فرض اللغات الأجنبية « الإنجليزية مثلاً » كلغة رسمية ولغة لتلقي التعليم بدعوى العصرية والقضاء على منابع الإرهاب، وهذا ليس غريباً على العقل الغربي الذي تمثل أمريكا النسخة الأخيرة له، فقد فعلتها فرنسا في الجزائر ووصل الأمر إلى حد تجريم تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم ومعاقبة من يقوم بذلك، ولكن الشعب الجزائري مارس تعليم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم سرّاً وكان هذا جزءاً من عملية الثورة على المستعمر وشكلاً من أشكال مقاومته.

إنها إذن حرب أمريكية على الهوية، لا يقبلها أحد ذو كرامة، وتدخل في صميم شئوننا الداخلية، بل ومساس خطير بالأمن القومي، وهنا نسأل سؤالاً بريئاً، هل يسمح لنا الأمريكيون أو الإسرائيليون مثلاً بالتفتيش في مناهجهم التعليمية، ومطالبتهم بتغيير بعضها لأن بها أموراً تمسنا، ومن المعروف أن تلك المناهج مليئة بالافتراءات على العرب والمسلمين وعلى الدين الإسلامي تحديداً وعلى الحضارة الإسلامية، وترسم صورة مغايرة للحقيقة

وتزرع وجداناً معادياً في العقل الغربي ضد كل ما هو عربي وإسلامي، وهل يسمح لنا الأمريكيون والإسرائيليون بالمطالبة بتغيير القوانين العنصرية ضد الأجانب في القانون الأمريكي والإسرائيلي وخاصة ما تمت صياغته بعد ١١ سبتمبر.

ومن المهم هنا أن نذكر مثلاً، أن إسرائيل لا تسمح طبقاً للقانون الإسرائيلي بممارسة التبشير المسيحي على أرضها، وكذلك فإن أحداً لا يجرؤ على تغيير المناهج الإسرائيلية الممتلئة بالأساطير التاريخية والعداء والحقد والمناهج العنصرية الإسرائيلية ترى أن العرب هم غير موجودين أصلاً، وإن وجدوا فعلى الإسرائيلي قتلهم أو طردهم، ثم إن المدارس الدينية الإسرائيلية التي أفرزت أمثال إيجال عامير قاتل رابين، وباروخ جولد شتاين مرتكب مجزرة المسجد الإبراهيمي بمدينة الخليل، هذه المدارس تحظى بالدعم الحكومي الإسرائيلي، ولا يجرؤ الأمريكان مثلاً على المطالبة بإلغائها أو تعديل مناهجها، بل كل إسرائيل كمجتمع وفكرة وحكومة ومدارس وتعليم وتربية كلها عنصرية حتى النخاع ولا تجرؤ أمريكا على المطالبة بتغيير عقلها مثلاً ! !.

المطلب الأمريكي خطير شكلاً ومضموناً، وهو جزء من الحملة على العالم الإسلامي، بل هو دخول في منطقة الألغام، لأن أحداً لن يقبل هذا بسهولة، وربط الموضوع بالإرهاب مغالطة خطيرة، فالإرهابيون المزعومون بما فيهم المتهمون بارتكاب حوادث ١١ سبتمبر ليسوا خريجي المدارس الدينية، بل خريجي مدارس مدنية وبعضهم تعلم في الغرب، وكذا فإن عدداً كبيراً من قادة وعناصر القاعدة بما فيهم أسامة بن لادن وأيمن الظواهري كلهم من غير خريجي المدارس الدينية، بل إن عدداً لا بأس به من ذوي الأصول - وليس الجنسية فقط - الإنجليزية والأمريكية والفرنسية وغيرهم الذين دخلوا في الإسلام حديثاً أو منذ فترة قاتلوا في صفوف طالبان، أو قاموا بمحاولة اختطاف طائرات « ريتشارد ريدلي مثلاً » ، وهم ليسوا خريجي مدارس دينية إسلامية، بل تعلموا وتربوا وشربوا ثقافتهم من مجتمعات غربية،

وهكذا فإن ربط الموضوع بالإرهاب هو نوع من الخداع والصحيح أن محاربة الإرهاب تستخدم كذريعة لتمرير أمركة العالم، وإعادة بناء العقل الإسلامي على النمط الأمريكي.

ولا شك أن من دواعي الاستفزاز لعقلنا وحضارتنا أن يزعم الأمريكيون أو غيرهم، أننا نحتاج إلى من يلقننا مفاهيم الحرية أو حقوق الأقليات أو احترام المرأة أو غيرها من المفاهيم لأن ذلك كله جزء لا يتجزأ من قيمنا الحضارية أكثر من الغرب عشرات المرات، فالحرية من صميم المنهج الإسلامي، بل هي مقدمة على التوحيد لأن حرية الاختيار أساس المسئولية والحساب والعقاب وكذلك تضمن نصنا النظري « الكتاب والسنة » وتراثنا الحضاري وممارساتنا أروع أمثلة التعايش بين الأقليات ومختلف الأجناس والأعراق، ويكفي أن أقليات عرقية ودينية عاشت ولا تزال في كنف المجتمعات الإسلامية ولم يحدث لها تطهير عرقي كما حدث ويحدث في الغرب « أوربا وأمريكا » حتى الآن تقريباً، والحرية الغربية مثلاً حرية عنصرية وإلا لماذا يسكت الغرب وأمريكا على انتهاك تلك الحرية بصورة يومية وعلى مدار الساعة في فلسطين المحتلة منذ أكثر من ٦٠ عاماً وقبله عشرات الأعوام، والأمثلة أكثر من أن تحصى في إطار العنصرية الغربية تجاه الآخر بل تجاه المرأة، وهكذا ففاقد الشيء لا يعطيه فلن يعلمنا الغرب وأمريكا قيماً هم أنفسهم يفتقدونها على المستويين العالمي والإنساني.

ولا يعني هذا بالطبع أننا نرفض التطوير أو الاستفادة من كل تقدم وكل قيمة صحيحة ونبيلة « فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها » ، شريطة ألا يكون ذلك نوعاً من الإملاء، وشريطة أن يكون ذلك أمراً صحيّاً وليس في إطار إعادة تشكيل وتنميط العالم بما يتلاءم مع الهيمنة الأمريكية.

د/ محمد مورو

إسرائيل طليعة استعمارية.. أم طبيعة دينية؟

كي نستطيع أن نواجه التحدي الصهيوني الذي مثل ويمثل أكبر التحديات وأخطرها بالنسبة لأمتنا وهويتنا وحضارتنا ومصالحنا ومستقبلنا بل ووجودنا ذاته، ينبغي أن نعرف طبيعة هذا الكيان المغتصب وتوجهاته.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تعارضاً بين نظرتين لفهم طبيعة المجتمع الصهيوني:

الأولى: ترى أنه جزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة في إطار الصراع الحضاري.

والثانية: ترى أن المجتمع الصهيوني مجتمع توراتي قائم على الأسطورة الدينية، وأن اليهود؛ بما لهم من نفوذ مالي وإعلامي وغيره، نجحوا في السيطرة على صناعة القرار الغربي، فحصلوا على الدعم اللازم لمشروعهم.

والحقيقة أنه بشيء من التركيب يمكن أن نجد أن للمفهومين أصلهما التاريخي والواقعي؛ فالكيان الصهيوني نشأ أصلاً من رغبة غربية استعمارية لإقامة كيان أو مجموعة وظيفية في هذه البقعة الحساسة من قلب العالم العربي والإسلامي كجزء من مشروع الهيمنة الغربية على المنطقة، وكحلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. وتلاقت هذه الرغبة الاستعمارية أو غذت مفهوم الحلم والأسطورة المزيفة لدى اليهود عن حق العودة إلى فلسطين وإقامة وطن قومي لهم على أساس التفسير المحرف للتوراة المحرفة أصلاً، أو على أساس الدعاية الدينية اليهودية لجمع يهود العالم في هذه البقعة. وفي الحقيقة فإن الرغبتين والمصلحتين التقتا في محطة تاريخية تمخض عنها قيام هذا الكيان، ويجب هنا أن ندرك أن هناك وجداناً غربياً كارهاً ومعادياً لليهود أصلاً، ومارس الاضطهاد بحقهم طويلاً؛ وبذلك فإن إقامة وطن قومي لهم يحقق هدفين:

الأول: هو التخلص من اليهود كزبالة بشرية غير مرغوب فيها في الغرب، **ويحقق ثانياً**: الاستفادة من هذا الكيان في تحقيق الأهداف الاستعمارية، والكيد للحضارة الإسلامية،

وتمزيق وحدة المنطقة، ومنع نهوضها أو تطورها، واستمرار نهبها.

إذن فالكيان الصهيوني هو مشروع غربي في الأساس تم صياغته داخل أروقة المؤسسات الاستعمارية الغربية قبل أن يفكر فيه هرتزل بفترة طويلة. فهناك على سبيل المثال لا الحصر نداء نابليون بونابرت إلى يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة « سنة ١٧٩٩م » في إطار المشروع الاستعماري في الشرق الذي كان يحكم به نابليون، وهناك دعوة الرئيس الأمريكي (جون آرامز) إلى استعادة اليهود لفلسطين « سنة ١٨١٨م » . وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية (بالمرستون) التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلي فلسطين « عام ١٨٣٩م » . وهناك برنامج (اللورد سافتبري) إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين « سنة ١٨٤٠م » . وهناك مشروع « إدوارد تنورد » لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها « سنة ١٨٤٥م » . وهناك كتاب (أرنست لاهان) المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية « إعادة بناء أمة اليهود » « سنة ١٨٦٠م » . وهناك كتاب « أرض جلفاد » للورنس أوليفنت عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية على مساحة ١. ٥ مليون فدان في الأردن وفلسطين « عام ١٨٨٠م » . ثم هناك تأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة العصبة العبرية نيابة عن (إسرائيل) من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين بإنشاء وطن قومي لليهود عام ١٨٩١م، وصدور كتاب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر « إعادة اليهود إلى فلسطين » الصادر عام ١٨٩٤م، كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل « الدولة اليهودية » الذي صدر عام ١٨٩٦م.

وفي هذا الصدد يقول جمال حمدان في كتابه « استراتيجية للاستعمار والتحرير »، ص ١٦٨: « التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخياً على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة، فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار؛ وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه، ويقول أيضاً في الكتاب نفسه، ص ١٧٦: « الاستعمار هو الذي خلق (إسرائيل) بالسياسة والحرب، وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علناً ».

ويؤكد (روجيه جارودي) على هذه الحقيقة أيضاً بقوله: « إن الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق (إسرائيل) وقدم لها مسوِّغات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية فسوف تتمتع بميزة على خصومها؛ لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مزروعة في المنطقة من أجل التغلغل الاستعماري. وكتب تيودور هرتزل سنة ١٨٩٥م في كتابه (الدولة اليهودية) قائلاً: « ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراساً ضد آسيا، وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية ».

وفي محاضرة لروجيه جارودي في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٦م في فندق الماريوت بالقاهرة قال: « إن (إسرائيل) ستلعب دوراً هاماً في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي نظراً لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي ».

وإذا كانت هذه هي أهداف السياسة الاستعمارية من خلق (إسرائيل) لتكون وكيلاً للاستعمار الغربي وجماعة وظيفية لأداء وتنفيذ أهدافه، فإن القادة الصهاينة لعبوا على تلك النقطة تجاه الرأي العام الغربي وقواه السياسية وأجهزته ومؤسساته الحاكمة، وفي نفس الوقت لعبوا على الأسطورة التاريخية لدى اليهود عن الوعد التوراتي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، سواء كان هذا السلوك من قادة الصهاينة نوعاً من الدجل والدعاية، أو أنه يعبر

عن اقتناعهم الحقيقي، سواء كان هؤلاء القادة الصهاينة ملحدين أو مؤمنين فإنهم عكسوا في سلوكهم وتصريحاتهم وبنائهم للكيان الصهيوني تفسيراً أسطورياً توراتياً ـ محرفاً بالطبع ومزيفاً وكاذباً، فجولدا مائير زعيمة حزب العمل التاريخية في تصريح لها لصحيفة لوموند الفرنسية ١٥/ ٥/ ١٩٧١م تقول: « نشأ هذا البلد تنفيذاً لوعد الرب ذاته؛ ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود » .

ومناحم بيجين « ليكود » يصرح لصحيفة دافار الإسرائيلية، ١٤/ ١٢/ ١٩٧٨م بقوله: « لقد وعدَنا الرب هذه الأرض، ولنا الحق فيها » .

أما موشي دايان « ملحد » فيقول: « إذا كنا نَملك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة، بلاد القضاة أرض أورشليم وحيرون وأريحا » جيروزاليم بوست، ١٠/ ٨/ ١٩٦٧م.

وهكذا يتردد دائماً على ألسنة الزعماء الصهاينة نفس المنطق سواء كانوا من اليمين أو اليسار، أعضاء في حزب العمل أو في كتلة الليكود، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية؛ فالتوراة ترسم كل شيء في (إسرائيل)، ترسم ثقافة الأطفال في المدارس؛ فبناء على توجيه دافيد بن جوريون فإن الدين اليهودي في إسرائيل يدرس كمادة إجبارية في المدارس.

والزواج في (إسرائيل) زواج ديني، ولا يوجد في (إسرائيل) دستور؛ لأن التوراة هي القانون الأساس للدولة، والتوراة هي التي تعرّف المواطن وتحدد من هو الإسرائيلي، وهي ذاتها تحدد حدود الدولة، بل وتسوِّغ الحرب والإرهاب « علينا ألاَّ ننسى أجزاء التوراة التي تسوِّغ هذه الحرب؛ فنحن نؤدي واجبنا الديني بوجودنا هنا؛ فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً وهو أن نغزو أرض العدو » حاخام برتبة نقيب، هآرتس، ٥/ ٧/ ١٩٨٢م.

والمذابح من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا تُحِلُّها التوراة وتأمر بها: « وحرِّقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل ومسن وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف » سفر يشوع، الإصحاح ٦ آية ٢١.

وبالطبع فإن هذا الفهم للتوراة - وهي محرفة أصلاً - هو بدوره فهم مغلوط، والحديث عن الوعد الإلهي في التوراة حديث مغلوط؛ لأن يهود إسرائيل أولاً ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية؛ فهم من يهود الخزر غالباً، وحتى لو فرض أنهم من أبنائهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم، ولأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية، ونحن من ثم أَوْلى من اليهود بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، ويوشع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم - عليهم السلام - وأن هؤلاء الأنبياء وغيرهم قد بايعوا محمداً الرسول ﷺ أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمَّهم في تلك الليلة في الصلاة في بيت المقدس، وأن موسى وداود، وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره الدين الحق الحنيف الذي جاء به إبراهيم أصلاً من عند الله، وجاء به النبيون من قبله ومن بعده، والذي جاء محمد ﷺ ليكون به خاتم الأنبياء، وليكون المسلمون هم ورثة كل وعد إلهي.

والكيان الصهيوني كيان عنصري؛ فهو قائم في تعريف المواطنة وكذا في سلوكه السياسي على فكرة تجميع يهود العالم الذين يُزعم أنهم من أب واحد وكتلة قومية ودينية واحدة، وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم عبيد لهم، والديمقراطية الإسرائيلية لليهود فقط.

والكيان الإسرائيلي كيان عسكري وعدواني؛ فـ (إسرائيل) تنفق ٥٠٪ من ميزانيتها على الجيش، والمؤسسة العسكرية تتحكم في كل شيء في (إسرائيل) تقريباً، وعلى حد تعبير بنيامين نتنياهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني السابق « فإن القوة العسكرية مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن إسرائيل. ونظريات السلام مع العرب ونظريات الخلاص اليهودي

بالسلام يدلان على رؤية غير واقعية للواقع الإسرائيلي البائس، وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم علينا نتيجة وجودنا فإنه بين الشعوب العربية » بنيامين نتنياهو ـ كتاب « فكان تحت الشمس » .

وهكذا فالمفهوم الإسرائيلي للسلام يتلخص في التفوق العسكري والخضوع الفاعل عسكرياً وسياسياً من جانب العرب للهيمنة الإسرائيلية، وهذا بالطبع يشير إلى استمرار وجود قوة عسكرية هائلة، واستمرار توجيه ضربات إجهاضية لكل محاولة عربية لامتلاك القوة.

ولأن الكيان الصهيوني جماعة وظيفية أولاً لممارسة العدوان لحساب الاستعمار الغربي « الأمريكي حالياً » ولأن حقيقة وجودهم مصنوع وغير طبيعي فإن المجتمع الإسرائيلي الذي قام على سلب حقوق الآخرين يحس بهاجس الأمن أو ما يسمى بعقدة الأمن، وهي عقدة ناجمة عن شعور إسرائيلي داخلي بأن وجودهم على هذه الأرض غير شرعي – ولم تفلح محاولات زرع ثقافة مصطنعة في إعطاء الإسرائيليين الشعور بالانتماء أو المشروعية؛ ولذا فإن المجتمع الإسرائيلي مجتمع معسكر؛ فأنماط المعيشة في إسرائيل « المستوطنات، الكيبوتزات، الموشوفات » وطريقة التجنيد والتعبئة ونظام الاحتياط ووضع المؤسسة العسكرية السياسي من حيث كونها مصدراً للنخب السياسية والأمنية رفيعة المستوى، وأهمية حقيبة وزارة الدفاع في الحكومات الإسرائيلية، ونسبة مخصصات الميزانية العامة الإسرائيلية للاتفاق العسكري، توضح الوضع الذي تمثله المؤسسة العسكرية في (إسرائيل).

ويعاني المجتمع الإسرائيلي أيضاً من مسألة عدم تجانس اليهود القادمين من مختلف بقاع العالم، من غرب أوروبا وأمريكا، ومن شرق أوروبا، ومن اليمن والعراق والمغرب وروسيا، والحبشة وغيرها، وكل منهم يحمل ثقافة مختلفة، ولن يفلح الحديث عن الأسطورة التاريخية أو وحدة الأصل اليهودي في صهر هذا المزيج غير المتجانس، وكذلك فإن الوجود العربي

الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لإسرائيل؛ فلا هي قادرة أو راغبة على إعطائهم حقوقهم السياسية كمواطنين إسرائيليين ومع تزايد معدلات النمو السكاني الفلسطيني فإن مشكلة ديموجرافية خطيرة ستواجه الكيان الصهيوني.

الكيان الصهيوني بعد الحرب الباردة:

إذا كان الصهاينة قد قبلوا أن يقوموا بدورهم كوكيل للاستعمار الغربي في المنطقة مقابل السماح لهم بإقامة كيانهم ودعمه مادياً ومعنوياً، فإن مرور عشرات السنين على هذا الكيان جعل قادته يفكرون في التحول من دور التابع إلى دور الشريك الاستراتيجي، وتواكب في تلك اللحظة حدوث متغير هام في الصراع الدولي ومعادلاته الإقليمية؛ فبسقوط الاتحاد السوفييتي السابق ونهاية الحرب الباردة، قلَّت أهمية (إسرائيل) الاستراتيجية بالنسبة للغرب عموماً وأمريكا خصوصاً، وتواكب ذلك مع الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة بعد حرب تحرير الكويت ١٩٩١م والاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣، أن أمريكا جاءت بجيوشها ولم تستخدم هذه المرة ـ لأسباب كثيرة ـ الصهاينة كجماعة وظيفية لأداء خدمات عسكرية نيابة عنها، وهذا بدوره قلل الأهمية الاستراتيجية للإسرائيليين، ولكي يعيد الإسرائيليون التأكيد على أهميتهم ودورهم ساروا على عدة محاور أولها زيادة التغلغل الصهيوني في الإدارة الأمريكية؛ وخاصة الخارجية والمخابرات والدفاع ومراكز البحث ومؤسسات صنع القرار الأمريكي عموماً بشكل لم يسبق له مثيل على الإطلاق في تاريخ العلاقة بين الطرفين.

ثم عملت (إسرائيل) على تقديم نفسها ليس كتابع لأمريكا بل كحليف استراتيجي - مستقل - لها، ولو كحليف صغير أو أقل حجماً.

يقول شمويل كاتز في بحثه المعنون: « وجهة نظر إسرائيلية للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية » : « ما مدى صحة القول بأن (إسرائيل) تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية

اعتماداً تاماً؟ إنه قول سخيف حتماً لو أخذناه على ظاهره؛ فإذا كانت إسرائيل توصف دائماً بأنها حليف؛ فمعنى ذلك أن هناك بين الولايات المتحدة وإسرائيل حالة من الاعتماد المتبادل لا تقل، بل إنها تزيد في بعض الجوانب عن العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية »، ويضيف الباحث الإسرائيلي شمويل كاتز: « لا غنى لأمن أمريكا عن إسرائيل الصديقة، لا بسبب الحقائق الجغرافية السياسية وحدها؛ بل أيضاً لأن إسرائيل أصبح لديها القدرة على خدمة المصالح الأمريكية بشكل إيجابي ولا سيما في الشرق الأوسط ».

ويطرح كاتز أن علاقة الحلفاء هي الأكثر قبولاً بقوله: « ولا شك في أن بالوسع إقامة علاقة صحيحة ومتكافئة كالعلاقة بين الحلفاء بإبرام اتفاق تعاقدي لا يتأثر بالتحيزات السياسية ليضمن لإسرائيل أن تحصل لا على منح بل على مقابل للخدمات ».

وطرحت (إسرائيل) نفسها بعد الحرب الباردة كذراع قوية وفعالة في مواجهة الصحوة الإسلامية، وإذا كانت دوائر حلف الأطلنطي وأمريكا بالذات قد اعتبرت أن الإسلام هو العدو الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وأن الصحوة الإسلامية تمثل خطراً على المصالح الأمريكية والغربية قيمياً وسياسياً وعسكرياً، واقتصادياً، فإن (إسرائيل) التي تحس بالخطر ذاته عليها مستعدة للقيام بدورها لحماية نفسها ولحماية مصالح أمريكا والغرب أيضاً. كما أكثرت (إسرائيل) من الحديث عن دورها الهام في موازنة الخطر الإيراني المرتقب

وقد طرحت (إسرائيل) نوعين من التكتيك لخدمة الأهداف الأمريكية بعد الحرب الباردة: الأول يتضمن سيطرة أمريكا اقتصادياً وكذلك سياسياً وعسكرياً على المنطقة من خلال إدماج المنطقة في تجمع اقتصادي وعلاقات اقتصادية « السوق الشرق أوسطية » تحقق لأمريكا أهدافها، وتكرس سيادتها على العالم والمنطقة، وتكون إسرائيل فيه أكبر الشركاء والقائد الإقليمي للتنمية التي تحقق بدورها من خلال رفع مستوى معيشة العرب نزع فتيل التطرف الإسلامي الذي يستمد مادته من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، وفي الوقت

نفسه تحقيق نوع من السلام مع العرب يضمن لإسرائيل البقاء في المنطقة كجزء مندمج فيها من خلال شبكة قوية ومتنوعة من العلاقات الاقتصادية مع المحافظة على تقوية الذراع العسكري الإسرائيلي ونزع سلاح العرب؛ أي أن يحقق نوعاً من الربط بين (إسرائيل) والعرب يجعل من الصعب على الدول العربية أن تفكر في قطع صلتها بـ (إسرائيل) والتحول إلى علاقة عداء والرؤية الثانية تقوم على استمرار إسرائيل منفصلة عن الشرق الأوسط وليست مندمجة في نظام شرق أوسطي؛ لأن مستقبل إسرائيل والمصالح الغربية من يتمحور حول إسرائيل ذاتها وقدرتها على الاحتفاظ بشخصيتها في وسط معاد، وأنه لا توجد وسيلة للتعامل مع هذا المحيط إلا بالقوة والردع والعنف. يقول نتنياهو في كتابه « مكان بين الأمم »: « السلام الوحيد الممكن تحقيقه بين العرب و (إسرائيل) هو السلام الذي يعتمد على ردع العرب، هو سلام حذر ومسلح يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي عن التفكير في استمرار الحرب » .

وفي الحقيقة فإن (إسرائيل) قد نجحت بوسائل عدة في إقناع واشنطن بأسلوب التحالف بدلاً من أسلوب التابع؛ وأصبح هناك انطباقا كامل بين البلدين.



الإرهاب الإسلامي وأكاذيب الديمقراطية

عصر المغالطات الأمريكية الكبرى

في مجلة « النيوزويك » الأمريكية – الطبعة العربية –، ثلاث مقالات طويلة تتحدث عن الرؤية الأمريكية للعالم ولمنطقتنا بالتحديد وللنظرة إلى العالم العربي والإسلامي، والمقالات الثلاث تصلح نموذجا لما يمكن أن نسميه عصر المغالطات الأمريكية الكبرى ومن المهم بالطبع أن نرصد مثل هذه المقالات التي تكشف طريقة التفكير الأمريكية التي تشتبك وسوف تشتبك معنا بالضرورة، لأننا أولا موضوع هذه المقالات، ولأنها ثانيا بقلم ثلاثة من أهم الكتاب الأمريكيين، الذين يرسمون أو يكشفون بالأحرى عن المخطط الأمريكي والاستراتيجية الأمريكية للعالم في عصر العولمة وخاصة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

المقالة الأولى بعنوان « العالم المعاصر هدفهم » بقلم فرانسوا فوكوياما، والثانية بعنوان « عصر حروب المسلمين » بقلم صمويل هاتنجتون، والثالثة بعنوان « كيف يمكن إنقاذ الوطن العربي » بقلم فريد زكريا.

لأسماء كُتَّاب المقالات أهميتها، وكذا عناوين المقالات الثلاث **فالاسم الأول:** « فرانسو فوكوياما » هو المفكر الأمريكي الذي دشن انتصار الرأسمالية على الشيوعية في جانبه الفكري، ونظر لما يسمى بنهاية التاريخ قاصدا أن انهيار الشيوعية وانتصار الرأسمالية يعني أن الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية هي الحل والطريق الصحيح الوحيد أمام البشرية وعلى كل البشر أن يؤمنوا بهذا الدين – دين حرية التجارة والسوق والخصخصة والعولمة، وأن يعلنوا اعتناقهم له، وإلا فإن القطار سوف يفوتهم أو يدهمهم ويخرجون من التاريخ، فرانسوا فوكوياما بالطبع لم يكن يحلل الظاهرة، ولم يصل إلى هذه النتيجة من خلال التحليل العلمي الرصين، ولا النظر في الصيرورة التاريخية ولا استخدام منهج علمي جديد أو قديم ليصل إلى هذه النتيجة من مقدمات حقيقية وموضوعية، ولكنه كان مجرد بوق لآلة الإعلام الغربية –

التابعة للقوى الحاكمة في أمريكا والغرب « تحالف العسكريين والرأسماليين » الذين خططوا للهيمنة على العالم، وإعادة صياغته بطريقة تسمح بنهبه وقمعه بطريقة سلسة وسهلة وبدون خسائر أو مجهود كبيرين.

وبديهي أن الرجل استخدم أسلوب القفز على الحقائق الموضوعية، وصاغ عددا من المغالطات الكبرى ليصل إلى هذه النتيجة، فانهيار الشيوعية لا يعني بالضرورة صلاحية الرأسمالية، بل قد يعني في جانب منه عدم صلاحية الرأسمالية ذاته لأنها مثل زميلتها خرجت من نفس الأرضية الحضارية الفاسدة — الحضارة الغربية — التي أفرزت أيضا النازية والفاشية والصهيونية، وهي حضارة القهر والعنف والنهب والاستعمار والاسترقاق وإبادة الشعوب، وقد عانى العالم ولا يزال معاناة شديدة من صعود تلك الحضارة منذ عدة قرون.

والاسم الثاني: هو صمويل هاتنجتون الذي هو بدوره أيضا أحد أبواق القوى المسيطرة « تحالف الرأسمالية والعسكريين » ولا بد أن يكمل الرجل ما بدأه فوكوياما، فإذا كان فوكوياما يعتبر أن على الناس أن يدخلوا في دين الرأسمالية طوعا أو كرها، وليس أمامهم بديل، فإن هاتنجتون حدد القوى والأفكار التي يمكنها أن تقف عقبة أمام هذا الزحف العولمي والرأسمالي واعتبر الحضارة الإسلامية أخطر هذه العقبات، لأنها أولا حضارة تعبر عن قطاع كبير من البشر، وتؤثر على قطاع آخر من غير المسلمين، ويمكن أن تكون بديلا صالحا للرأسمالية والشيوعية معا، فحلم الإنسان في العدل لن يموت وسوف يبحث الإنسان عن نظرية تحقق له هذا، ولا بد لهذه النظرية أن تكون ذات خطاب عالمي غير عنصري وأن تكون في نصها النظري والتطبيقي منحازة إلى المستضعفين والفقراء، وهكذا فإن الإسلام كدين وكأيديولوجية للفقراء يمكن أن يكون هو هذا البديل، وهكذا فلا بد من إعادة بعث فكرة قديمة هي فكرة صدام الحضارات، وبديهي أن الحضارات تتصادم وتتحاور حسب الظروف طبعا، ولكن اختيار صدام الحضارات عنوانا لعصر العولمة كان يعني بالضبط

ضرورة القضاء بالقوة على كل المراكز الثقافية والحضارية والبشرية التي يمكن أن تعارض زحف العولمة وتوحش الرأسمالي، إنها فكرة عسكرة العولمة، وبالطبع فإن السيد فوكوياما بعد أن حدد المراكز الحضارية المختلفة في العالم اختار الحضارة الإسلامية لتكون هي العدو الجديد للغرب الذي ينبغي تحطيمه عسكريا ومنعها من إقامة تحالف مع الحضارة الكونفوشيسية « الصين » لمواجهة عصر العولمة والأمركة والهيمنة وهذا هو ما حدث بالضبط في آسيا الوسطى والحملة على أفغانستان مثلا التي استهدفت أساسا منع التحالف الإسلامي الصيني والتواجد في مركز الثقل السكاني الإسلامي في العالم بالإضافة إلى الوجود في الخليج والضرب المستمر للعراق وممارسات إسرائيل ضد الدول العربية وكلها تصب في خانة واحدة، خانة محاولة تحطيم القوى الحضارية الإسلامية عسكريا وبالقوة وبلا هوادة، وبديهي أن صمويل هاتنجتون لم يكن يقرأ الغيب ولا يملك أدوات المفكر القادر على استقراء المستقبل بقدر ما كان يروج لمخطط أعد سلفا في أروقة الأجهزة الأمريكية الحاكمة.

الاسم الثالث: هو فريد زكريا وهو يكمل ما بدأه زميلاه ولكنه يختار المنطقة العربية تحديدا ويفكر لنا أو بالأحرى عنا ويحدد ما هو الواجب علينا عمله لكي نصبح أتباعا مخلصين للدين الجديد؛ فهو يرسم الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ينبغي أن نتطور إليها وقد يصيب الرجل جزئيا وقد ينصح بأشياء مطلوبة ولكن الإطار المنهجي هو الأخطر، والمرجعية يجب أن تكون مرجعية الحرية والنزاهة وهي غربية وليست إسلامية أو عربية مثلا، إن علينا أن نعتنق القيم الغربية جملة وتفصيلا وأن نصبح جزءا من المجهود العالمي برغم إننا أول الضحايا لهذا المجهود المزعوم - إسرائيل مثلا - والرجل هنا أيضا مجرد مروج لمخططات السادة المسيطرين « تحالف الرأسماليين والعسكر » وبصرف النظر عن صحة أو عدم صحة ما قاله الرجل في حق أنظمة الحكم العربية فإن الهدف ليس إنقاذنا بالضرورة بل إخضاعنا بطريقة منهجية وتحقيق الاستقرار لإسرائيل والقضاء على إمكانية المقاومة مستقبليا.

وإذا حاولنا تأمل المقالات الثلاث بالتفصيل لوجدنا أن هذه المقالات تحمل عددا هائلا من المغالطات المنهجية والمعلوماتية والتحليلية كذلك، وهي تعبر عن طريقة التفكير الأمريكية وتكشف جانبا مهما من المخطط الذي بدأ الترويج له بقوة، فالمقال الأول « العالم المعاصر هدفهم » لفرانسوا فوكوياما يكشف العنوان مباشرة عما يريده هؤلاء المروجون للسياسة الأمريكية، هنا محاولة تبرير العدوان المتوقع هنا وهناك، فالإرهاب الإسلامي أو الأصولية الإسلامية هدفها تدمير العالم المعاصر ومنجزات الحضارة والقيم الصحيحة لأن هؤلاء مجرد أشرار يحقدون على المتقدمين ولا يحملون أي رؤية أو برنامج وليسوا محتجين على السياسات الأمريكية أو الإسرائيلية مثلا، إنهم فقط أشرار حاقدون يجب تدميرهم لإنقاذ أهل الخير منهم وهذا المفهوم طبعا صار هو الرؤية الرسمية المعتمدة للإدارة الأمريكية، وصار جزءا لا يتجزأ من كلام كتاب وصحفيين وسياسيين بعد ١١ سبتمبر بالتحديد وهذا بالطبع هو العنوان الرئيسي لعصر المغالطات الأمريكية الكبرى التي تتميز بالصفاقة وعمى الألوان، أو حتى العمى الكامل عن الحقائق الموضوعية وهي نوع فريد من تجزئه الحقائق وعدم ربط المقدمات بالنتائج، وهكذا لا بد من القفز على حقيقة وجود ممارسات وأفعال أمريكية وإسرائيلية ربما تكون هي السبب فيما حدث!!

يستمر فوكوياما في مغالطاته، فالأشرار الذين يحقدون على أمريكا، يحقدون أيضا على العالم، إنهم لا يريدون أن تستمر مسيرة الديمقراطية التي كانت قد بدأت تنتشر في كل مكان بالعالم قبل ١١ سبتمبر، ولا يريدون أن تستمر مسيرة العولمة التي قربت البشر من بعضهم البعض، ورفعت الحواجز والقيود وحققت النمو.. والمغالطات هنا بالجملة؛ فالديمقراطية المزعومة ليس لها عيون لترى ممارسات إسرائيل وانتهاكها اليومي وعلى مدار الساعة لكل أنواع حقوق الإنسان وكل أنواع الديمقراطية، بل إن إسرائيل نموذج في العنصرية والقمع لم يحدث من قبل، تباركه الدول الديمقراطية الكبرى!! وتدعمه بالمال والسلاح، والعولمة

والرخاء المزعوم قبل بعد ١١ سبتمبر لم يحدث، بل الذي حدث أن العولمة أطاحت بالفقراء وحولتهم من فقراء إلى معدمين، فقد أصبح مئات الملايين لا يعانون فقط من ضعف مستوى الأجور، بل من ضياع فرصة العمل ذاتها، وتحول التقارب المزعوم بين البشر إلى حلبة مصارعة حرة بين قزم وعملاق!!

الغريب أن السيد فوكوياما قائلا: إن ذلك قد انتهى الآن وضاعت الفرصة، وقد قررت أمريكا أن تطردنا من الجنة، ولا ينسى فوكوياما أن يؤكد أن ضرب أي أحد وكل أحد ممكن إذا كان إرهابيا، أو دعم إرهابيا أو مر عليه ذات يوم إرهابي أو حلم في يوم من الأيام بمقاومة أمريكا وإسرائيل!!

يستمر فوكوياما في مغالطاته، فالحرب التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ليست نوعا من تطور طبيعي للعولمة باتجاه العسكرة، حتى تعمل مصانع السلاح التابعة لكبار الرأسماليين، وهذه العسكرة ليست تطورا طبيعيا للرأسمالية الباحثة عن تصريف منتجاتها والتي تلتهم المزيد من الضحايا بنشر الأوبئة والفوضى والحروب في العالم لبيع الأدوية والسلاح والمخدرات، والتي انفصلت حتى عن أصلها النظري والفلسفي وصارت آلية خاصة مستقلة لا يمكن حتى للقائمين عليها السيطرة على مسارها « عصر ما بعد الحداثة!! » بل هذه الحروب في رأي فوكوياما هي دفاع الخير ضد الشر، هذا الشر الذي يستهدف القيم والنموذج الأمريكي، وهذه القيم الأمريكية هي في رأي فوكوياما قيم عالمية تمثل تطلعات عالمية، وهكذا فإن الذين ضربوا أمريكا، كانوا يريدون القضاء على رخاء وتقدم العالم.

ويعكس فوكوياما جهلا مركبا بالإسلام - أو قل يغالط أيضا رغم معرفته - فالإسلام، كدين لديه مشاكل فلسفية مع الحداثة !! والصحيح أن الإسلام كدين بالفعل لديه مشاكل مع الظلم والهيمنة والقهر وإذلال الإنسان وإفساد البيئة وهيمنة ٢٠٪ من العالم على ٩٠٪

من خيراته بينما يعيش الباقي على الفتات لديه مشاكل مع ازدواج المعايير وإبادة الشعوب وإنشاء إسرائيل!!

ليست المشكلة مع التطور، بل هذا التطور تحديدا يحض عليه الإسلام حضا ويعتبره سنة كونية.

ويتعامل فوكوياما مع الحركات الإسلامية بجهل أيضا، فهو يحللها من منظور الأصولية المسيحية، وهي حركات رجعية تكره أمريكا، لأنها متقدمة، وتتمتع بالحرية أو لأنها علمانية أو بها انحلال جنسي أو إنها تكرس التسامح الديني والتعددية ولا تخدم الحقيقة الدينية، وهذا كلام قد يصح بالنسبة إلى اليمين الأمريكي مثلا ولا يصح بالنسبة للحركات الإسلامية وخاصة ما كان منها على غرار حزب الله وحماس والجهاد الفلسطيني، فهذه حركات مقاومة وهي مع غيرها من الحركات الإسلامية أيا كان الرأي فيها - حركات احتجاج، احتجاج على الاستبداد وصوت الجنوب ضد الشمال، ولا يمكن فهمها بمنظور علم الاجتماع الغربي أو الكنسي وهي أيضا في قطاع كبير منها تريد التعددية وتعكس التسامح الديني وليس العكس بل هي غير عنصرية تماما.

أما موضوع الحقيقة الدينية فهو موضوع يدل على جهل فوكوياما بالإسلام وبالحركات الإسلامية تماما، بل هو تعبير كنسي أصلا، فالإسلام والإسلاميون والحركات الإسلامية لا علاقة لهم بموضوع الحقيقة الدينية، بل هم يرفعون شعار « لا إكراه في الدين » و « لا إكراه في الكفر » بمعنى أن العالم المعاصر الذي تهيمن عليه أمريكا يدافع بالفعل عن حقيقة دينية هي فرض دين حرية السوق والعولمة على العالم!! وهذا مرفوض بالنسبة للحركات الإسلامية.

المقال الثاني « زمن حروب المسلمين » للكاتب الأمريكي صمويل هاتنجتون يحمل بدوره نفس المغالطات - بل يحمل العنوان أيضا مغالطة، فالحديث عن زمن حروب المسلمين يوحي

بأن هناك علاقة ضرورية بين المسلمين والعنف والحرب، وكأن العنف اختراع إسلامي مثلا، وبديهي أن كل الحضارات والشعوب والجماعات أفرزت عنفا، ولكن عنف المسلمين وحروبهم لا تمثل إلا جزءا يسيرا جدا من حروب وعنف الغرب « إبادة شعوب في أمريكا واستراليا - إقامة إسرائيل - الحروب الدينية - حربين عالميتين » بل إن تلك الحروب التي كان المسلمون طرفا فيها كانت بتشجيع من الغرب أو بمؤامرة منه، والحروب التي يتحدث أو يستدل بها هاتنجتون على أنها حروب المسلمين ينطبق عليها هذا بالتحديد.

وبداية فإن العنف والقتال والحروب في حد ذاتها ليس شيئا مذموما، فالكفاح والدفاع والنضال ورد العدوان ومنع الظلم وانتزاع الحقوق المشروعة عمل نبيل محمود.

يستدل هاتنجتون على عنف الإسلام والمسلمين برصد الحروب الأخيرة بينهم وأن خمسا من الدول السبع المدرجة على القائمة الأمريكية للدول التي ترعى الإرهاب من الدول الإسلامية، وكذلك فإن معظم الجماعات المدرجة على القائمة ذاتها جماعات إسلامية، وأن ١١ من أصل ١٦ عملا إرهابيا بين عامي ١٩٨٣م - ٢٠٠٠م كان من المسلمين، وأن القوات الأمريكية خاضت ١٧ عملية عسكرية ضد مسلمين منذ عام ١٩٨٠م - ١٩٩٥م وأن ٣٢ نزاعا مسلحا كان ٢١ منها بين مسلمين أو كان المسلمون طرفا فيها، وهذا يعني من وجهة نظر صمويل هاتنجتون أن هناك خللا في الإسلام أو مفاهيم المسلمين عنه وأنه لا بد من تهذيب المفاهيم الإسلامية وإعادة السيطرة على العالم الإسلامي عسكريا وثقافيا وإلا فإن حربا عالمية بين المسلمين وأمريكا يمكن أن تقع، وهكذا فإن الرجل الذي روج لمقولة صدام الحضارات ومهد بالتالي للحرب الأمريكية ضد الدول الإسلامية - حرب أفغانستان مثلا - هو نفسه يمهد للحرب الأمريكية المتوقعة.. على كل حال فإن حديث هاتنجتون - واستدلالاته الرقمية من عنف المسلمين ربما تكشف في جانب منها عن حيوية الإسلام باعتباره دين المقاومة والجهاد والقادر على تحريك الجماعات ضد النفوذ الأمريكي والعنف

الأمريكي، وهذه نقطة إيجابية وليست سلبية.

المقال الثالث بعنوان « كيف يتم إنقاذ الوطن العربي » ، للكاتب الأمريكي أيضا فريد زكريا، وهو مثل زميلية يمارس المغالطة، ولكنه هذه المرة في أسلوب ذكي، فالعنوان يتحدث عن إنقاذه ويستخدم مصطلح الوطن العربي وهو مصطلح أثير لدينا نحن العرب، وهكذا فالرجل يبرز نوعا من التعاطف في العنوان والاسم قد يبدو من أصل عربي « فريد زكريا » وربما كان يهوديا، وهو يبدأ المغالطة بالحديث عن الإنقاذ، والصحيح أن يكون إنقاذ الوطن العربي من ممارسات أمريكا وإسرائيل، وإنقاذ الوطن العربي من أمريكا وإسرائيل، أمريكا التي تحتل أجزاء من الوطن العربي بقواتها وتضرب العراق وتحاصره وإسرائيل صنيعة أمريكا التي ضربت الدول والشعوب العربية وحالت دون تحقيق وحدة هذا الوطن العربي، وحالت دون تقدمه وتطوره الاقتصادي والاجتماعي بفرض الحروب وتكاليفها على بلدان هذا الوطن!!

الوصفة الأمريكية هذه المرة على طريقة وصف الذئب العلاج للحملان، أو ادعاء الثعلب صفة الطبيب المداوي، والروشتة تحمل قدرا منهجيا عاليا من المغالطة وهي تتحدث عن استبداد وفساد، وهذا صحيح، ولكن من كان وراء هذا أصلا؟!

المهم أنه في إطار دغدغة مشاعر المواطن العربي بالحديث عن الإصلاح السياسي والاقتصادي، المطلوب هو تحقيق هذا الإصلاح ليس بالوحدة مثلا، ولا بدعم المقاومة ضد إسرائيل، ولكن بتبني القيم الأمريكية والغربية، أي مسخ الهوية وتغيير برامج التعليم، والتخلي عن مشروع المقاومة ضد إسرائيل والقبول بالوجود الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة بل وطلبه والتعايش معه، والتغاضي عن ممارسات إسرائيل، والتركيز على تطوير المجتمعات داخليا، وهذا مستحيل مع وجود إسرائيل طبعا، وهكذا فالوصفة هي أمركة وأسرلة المنطقة وليس شيئا آخر، وهكذا فنحن أمام مغالطات أمريكية من كل صنف ونوع، إنه عصر المغالطات الأمريكية الكبرى.

التناقضات الثانوية والتناقض الجوهري

في الخطاب السياسي العلمي ينبغي التفريق بين نوعين من التناقضات، ومن ثم الصراعات التي تنشأ نتيجة لها، وهي التناقضات الثانويّة والتناقض الجوهري؛ لأن معرفة طبيعة التناقض تؤدي إلى اتخاذ الموقف الصحيح من أي موضوعٍ، وأي قضية، ولا شك أن إدراك هذه المسألة - أو بالأحرى عدم إدراكها- أدّى إلى الوقوع في أخطاءٍ منهجية وسياسية هائلة.. سواء على مستوى الحكومات أو الأفراد أو الجماعات السياسية، وبالأخص الحركات الإسلامية.

بداية فإن التناقضات الجوهريّة هي من النوع الاستراتيجي، وتكون عميقة في الزمان والمكان، ومن الصعب حلها إن لم يكن من المستحيل.. على الأقل في المستوى المتطور، وتحتاج لوقتٍ وجهدٍ.. أما التناقضات الثانوية فذات طبيعة تكتيكية ومحددة بموقف معين وبحسابات خاصة، وهذه التناقضات الثانوية عادة ما تتلاشى عند ظهور التناقض الجوهري.

ولا شك أن التناقض الجوهري في عالمنا المعاصر بالنسبة لنا كعرب ومسلمين هو التناقض بين الحضارة الإسلامية.. بما تمثله من حق وعدل والحضارة الغربية بما تمثله من قهر ونهب وعنصرية، وأن هذا التناقض يمتد في الزمان والمكان منذ حياة الرسول ﷺ إلى يومنا هذا، منذ تم الصدام بين النموذجين من البداية .. أربعة مواقع في حياة الرسول ﷺ منها: معركة مؤتة، دومة الجندل، موقعة تبوك، بعث أسامة، ثم حروب الفتح ضد الرومان، ثم الحروب الصليبية، ثم الصراع في المغرب العربي (حرب الألف عام)، ثم صراع الدولة العثمانية ضد أوروبا، ثم الاستعمار، فالصهيونية، فالاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق... إلخ.

لم يتوقف هذا التناقض الجوهري، وليس مقدرًا له أن يتوقف، ولكن يمكن ظهور تناقض ثانوي يزيح هذا التناقض الجوهري قليلاً مثل الحرب الباردة، وما أن تنتهي هذه الحرب حتى يعود التناقض الجوهري ليأخذ صدر المسرح.

الذي يعنينا هنا -وهدف هذا المقال- ليس ما سبق.. بل الحديث عن وجود تناقضات ثانوية داخل معسكر الأعداء، ولكن هذه التناقضات تتلاشى مباشرة إذا ما أطلّ التناقض الرئيسي برأسه، وهذا لا يمنع بالطبع دراسة التناقضات الثانوية في معسكر الأعداء، وتفعيلها، والاستفادة منها، ولكن شريطة إدراك أن مجرّد اللعب على هذه التناقضات لن يعيد إلينا حقوقنا؛ بل فقط سيكون أحد العوامل المساعدة وشريطة أن نظل واعين بأنها تناقضات ثانوية.

من التناقضات الثانوية في معسكر الأعداء تاريخياً الصراع بين إنجلترا وفرنسا إبان المرحلة الاستعمارية، وقد كانت كل من فرنسا وإنجلترا تتنافسان على النفوذ في مصر في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ووصل التنافس بينهما إلى درجة كبيرة، ولكن عندما اندلعت الثورة العُرابية في مصر فضلت فرنسا التضحية بالكعكة لصالح إنجلترا؛ لذبح الثورة العُرابية عام ١٨٨٢م، وقد قام وزير الخارجية الفرنسية بنفسه بتهنئة الإنجليز عندما انتصروا على العُرابيين في موقعة التل الكبير، وقال وزير الخارجية الفرنسية وقتها: إنه يفضل « النفوذ الإنجليزي في مصر على نجاح ثورة إسلامية يمكن أن تكون خطرًا على المشروع الاستعماري الغربي بكامله » .

[illegible] الأمر عندما اعتمدت الحركة الوطنية المصرية (مصطفى كامل) على الدعم [illegible] الفرنسي ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر، ولكن سرعان ما ضربت فرنسا [illegible] المصرية بتوقيع الاتفاق الودّي مع إنجلترا عام ١٩٠٤م، والذي تمّ فيه [illegible] على حساب (المستعمرات) طبعًا.

نفس الأمر تكرر دائماً مع الاتحاد السوفييتي السابق إبّان صراعه مع الولايات المتحدة، وتمّ اتفاق الطرفين على حساب مصر والعرب، ومرة أخرى في حرب الخليج الثانية التي عارضتها فرنسا في البداية ثم عادت فشاركت فيها.

وفي العدوان الأخير على العراق عارضت فرنسا وألمانيا مثلاً، ولكن من أجل المشاركة في الوليمة، وخوفًا من احتكار أمريكا لمنابع البترول !، ولكن حينما تأخر النصر الأمريكي قليلاً في بداية الحرب أبدى الرئيس الفرنسي انزعاجه من إمكانية انتصار (البربرية)، وبعد اندلاع المقاومة العراقية بعد شهرين من الاحتلال ثم تعاظمها بعد ذلك خشيت ألمانيا وفرنسا أن تتحول تلك المقاومة إلى نصر وصحوة للعرب والمسلمين فتم التوافق على قرار في مجلس الأمن لتسمية الاحتلال الأمريكي باسم قوات متعددة الجنسيات، وأكثر من هذا فإن التحرك الأمريكي ضد سوريا ولبنان في مجلس الأمن تحت اسم القرار ١٥٥٩ قد حظي برضا الفرنسيين بالكامل، وهو قرار يتحدث عن حل المقاومة، وبالتالي إطلاق يد إسرائيل في المنطقة، والأمر ذاته يحدث من أوروبا كلها وفرنسا بضمنها في موضوع السودان (دارفور) وموضوع الملف النووي الإيراني.

ولا ننسى في هذا الصدد أن الاتحاد الأوروبي كان قد اتخذ قرارًا باعتبار حماس منظمة إرهابية، وأن رئيس الوزراء الفرنسي السابق « جوسبان » كان قد اعتبر حزب الله في لبنان حزبًا إرهابيًّا، وهو الأمر الذي قررته ألمانيا التي اعتبرت أن من حق إسرائيل إقامة الجدار العازل، فوزير الداخلية الألماني السابق « أتو شيلي » عبر عن موقف حكومته، وقد صدر بيان من الخارجية الألمانية يؤيد ما قاله وزير الداخلية، وهكذا فالتناقضات الثانوية بين فرنسا وأمريكا أو ألمانيا وأمريكا لن تصل إلى حد تبني الحقوق العربية؛ بل فقط دور مريب أو محدود، وفي النهاية، ومرة أخرى فلا مانع من الاستفادة من أي تناقض ثانوي شريطة إدراك أنه ثانوي، وأن الطريق إلى الحقوق لن يكون إلا بقوانا الذاتية.

على أن المسألة الأكثر توضيحًا للفرق بين التناقضات الثانوية والتناقض الجوهري هو موضوع إسرائيل التي اعترف بها كل من أمريكا والاتحاد السوفيتي السابق ودول أوروبا وغيرها بعد قيامها بعدة ساعات، والتي تلقت دعمًا دائمًا من إنجلترا ثم فرنسا (الميراج الفرنسي، وإنشاء المفاعل الإسرائيلي في ديمونة.. بدعم فرنسي فني ومادي)، وكذلك ألمانيا (التعويضات الهائلة لليهود التي أخذتها إسرائيل) ثم أمريكا الآن، وهل هذا الموضوع الإسرائيلي أو الفلسطيني يكشف حقيقة التناقضات، وطبيعة المسألة في جوهرها، وفيما هو رئيسي وثانوي؟.

الصراع الطائفي عنوان المشروع الأمريكي في المنطقة

يستهدف المشروع الأمريكي لإخضاع العالم لإرادة واشنطن، والذي دشنه اليمين الأمريكي المتطرف في نهاية القرن الماضي، إحكام السيطرة على الشرق الأوسط بصفته المنطقة الأهم استراتيجياً في العالم، لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية معروفة. وقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ ذلك المخطط «الإمبراطوري» باحتلال أفغانستان، ثم احتلال العراق، ونشر القواعد الأمريكية بالخليج العربي، وفي منطقة آسيا الوسطى، وكذا دعم اليمين الصهيوني المتطرف لضرب قوى المعارضة العربية والفلسطينية، والتحرش بسوريا ولبنان وإيران والسودان... إلخ.

أصحاب هذا المشروع اكتشفوا مع الوقت أن هذه المنطقة تستعصي على الهضم، نظراً للحضور القوي للوجدان الإسلامي المنطلق من ثوابت الأمة ومرجعيتها الروحية. حاول الأمريكيون تطويع الثقافة الإسلامية عن طريق الإعلام، فتم إنشاء محطات فضائية وإذاعية وحملات دعاية مكثفة.. وإنشاء صحف وشراء أقلام دون جدوى، وحاول الأمريكيون القضاء على قوى المقاومة الإسلامية في العراق ولبنان وفلسطين، دون جدوى أيضاً، والمحصلة كانت هزيمة مدوية، وفضيحة منكرة للآلة العسكرية الأمريكية، وسندها في المعركة: الآلة الإعلامية الرهيبة، بتقنياتها المتطورة ووسائلها الخفية المنتشرة حول العالم! وكان من الضروري بالنسبة لأمريكا تغيير التكتيك مع المحافظة على الاستراتيجية؛ فإذا كانت الهزيمة العسكرية والإعلامية للقوى المجاهدة في المنطقة مستحيلة حتى الآن، فلا بد من إغراق المنطقة في أتون الصراع الطائفي، حتى يقوم هذا الصراع الطائفي بامتصاص طاقات الأمة، وإضعافها فيسهل في مرحلة لاحقة السيطرة عليها من جديد، والبدء في تنفيذ المشروع الأمريكي الإمبراطوري. وساعدها على ذلك وجود قوى محلية يمكن أن تستخدمها الولايات المتحدة في تنفيذ ذلك المشروع المرحلي.

استغلت الولايات المتحدة عملية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، وحاولت تقسيم الحالة اللبنانية على أسس طائفية، واستعادة أجواء الحرب الأهلية، وأخرجت من القبر قوى مارونية كانت قد اندحرت وتلاشت عندما اصطف الشعب اللبناني كله خلف المقاومة الإسلامية اللبنانية. وساهمت أخطاء سوريا في لبنان في تحقيق هذا المخطط، إضافة لعُقد الخوف لدى بعض القادة المحليين في لبنان.. وروح الثأر لدى البعض الآخر، وغيرها من الحسابات والاعتبارات الضيقة.

وعلى الجانب العراقي، كانت المقاومة العراقية سنية في معظمها، واستطاعت هذه المقاومة أن تظهر وتتعاظم وتكبّد الأمريكيين وعملاءهم خسائراً باهظة لا يمكن احتمالها أمريكياً، ومن ثم لجأ الأمريكيون إلى اللعب بالورقة الطائفية؛ لأنه ليس أمامهم سوى الهزيمة والانسحاب، وهذا يترتب عليه ظهور قاعدة إسلامية مقاومة يمكن أن تكون نواة لنضال عالمي ضد المشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة والعالم، أي أن خسارة أمريكا في العراق يمكن أن تكون بداية النهاية للحلم الأمريكي، ويمكن أن تكون نقطة انقلاب في المنحنى الإسلامي باتجاه الصعود، وهذا طبعاً لا يمكن القبول به أمريكياً وغربياً وإسرائيلياً. كانت الطائفية والصراع الطائفي هي المخرج الوحيد، وكانت هناك قوى وأجواء في العراق تسمح بهذا، هناك الخطأ التاريخي الإيراني في محاولة السيطرة على العراق مذهبياً، ولو بشيء من التعاون مع أمريكا أو الصدام الجزئي معها، وكانت هناك المرارات الشيعية التقليدية من نظام صدام حسين، ثم كان هناك الخطأ الكبير من السيستاني، والحكيم والجعفري، والقوى التي يمثلها هؤلاء في التعاون مع الاحتلال الأمريكي، بل ومشاركته على نطاق واسع في ضرب المدن السنية المقاومة في الفلوجة والرمادي وتل عفر وسامراء... الخ. المخطط الأمريكي الطائفي بدأ خطواته الكبرى في مدينة سامراء، وهي مدينة ذات أغلبية سنية من ناحية، وتحتوي على رموز هامة جداً في الوجدان الشيعي من ناحية أخرى؛ ففيها

مزارات شيعية كثيرة، ومن ثم فإن اختيارها لتكون نقطة البدء للحرب الطائفية كان اختياراً خبيثاً ومقصوداً، ومن هنا كانت عملية تفجير قبة الإمامين الهادي والعسكري بسامراء. وبديهي أن عملاً كهذا يمس وجدان الشيعة جداً، ويهدف إلى تأجيج مشاعر الكراهية والحقد بين أبناء الشعب العراقي الواحد، حيث تمت مهاجمة أكثر من (١٥٠) مسجداً سنياً وإحراقها، وقتل عدد من علماء السنة من أئمة تلك المساجد، ثم انتشرت حالات القتل الطائفي المتبادل في بغداد وغيرها.. وهي حوادث لم تُعرف قط في تاريخ العراق، ولكنها لعنة الاحتلال!! وبديهي أن المستفيد من ذلك هو سلطات الاحتلال الأمريكي التي ربما نفذت ذلك بيدها، أو على يد عملاء الموساد الذين ينشطون في العراق منذ بداية الغزو الأمريكي. وبديهي أن المقاومة العراقية، وهيئة علماء المسلمين السنية، وكل القوى الرافضة للاحتلال ليس من مصلحتها ذلك، وهو بالتأكيد ليس من مصلحة العراق، ولا من مصلحة السنة ولا الشيعة، ومن ثم إذا فتشنا عن المستفيد نجد أصابع الاتهام تشير إلى أمريكا وعملائها مباشرة. على أي حال، المسألة دخلت طوراً خطيراً، ويجب على العقلاء والحكماء والإسلاميين الحقيقيين، أن يتصدوا لتلك الفتنة، وأن يفشلوا هذا المخطط البغيض، حتى تظل المقاومة العراقية هي قاعدة للتحرر، وحتى لا يتحول العراق إلى مستنقع للطائفية.



الصراع على المياه في الشرق الأوسط

إذا كان الصراع على البترول قد شكل مساحة كبيرة من معادلات وأحداث المنطقة منذ عقود كثيرة وحتى الآن، فإن الصراع على المياه يمكن أن يكون أشد حدة؛ ذلك أن المياه في التحليل النهائي أهم من البترول وأغلى؛ فهي سر الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولا شك أن الإدراك المبكر لأهمية المياه، ومعرفة طبيعة الصراع القادم حولها سيؤثر على أمتنا إذا ما أحسنوا الاستعداد بكثير من الجهد والتضحيات، ويؤمّن لهم مستقبلاً معقولاً، أما إذا ظل العرب في حالة غفلة عن هذه التقنية الخطيرة فإن مجرد وجودهم على سطح الأرض سيصبح أمراً صعباً!

ومن المهم هنا أن نقرر حقيقة بديهية، أن هناك علاقة مباشرة بين الأمن العربي عامة ومسألة تأمين مصادر المياه. وإذا كان الأمن العام لدولة ما يرتبط بالمياه فما هي الإجراءات التي تتخذها تلك الدولة لتحافظ على كيانها ومصالحها في الحاضر والمستقبل؟، فإن فهم الأمن على أنه موضوع الدفاع العسكري داخلياً وخارجياً هو أمر سطحي وضيق؛ لأن الأمن العسكري هو وجه سطحي ضيق لمسألة الأمن الكبرى كما يقول روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق؛ فهناك الكثير من الجوانب غير العسكرية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسألة الأمن القومي، ومن هذه الجوانب بالطبع مسألة الأمن الغذائي والاقتصادي ومسألة المياه على رأس تلك الجوانب.

وإذا أخذنا مسألة الأمن الغذائي كمحدد لفهم مستقبل العالم العربي لوجدنا أن الأمر مفزع؛ ذلك أنه إذا كان من يمتلك غذاءه يمتلك قراره؛ فإن وجود فجوة غذائية في العالم العربي تصل إلى حوالي ٣٠ مليار دولار سنوياً هي الفرق بين الصادرات والواردات العربية

مما يمثل مشكلة خطيرة، بل ونسبة الاكتفاء الذاتي من أهم السلع الاستراتيجية في مجال الغذاء لا تزيد عن ٣٩٪، وهذه النسبة لها أهميتها؛ ونراها في حالة الدول ذات الأهمية في المنطقة العربية مثل مصر التي يبلغ اكتفاؤها الذاتي من القمح ٢٧٪.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن السوق العالمية للقمح تتشكل من دول ذات توجهات سياسية ومتعارضة معنا، لأدركنا فداحة المشكلة؛ فالدول الكبرى المسيطرة على سوق تصدير القمح هي « أمريكا، كندا، أستراليا، السوق الأوروبية المشتركة » ؛ حيث يمكنها التكتل للتحكم ليس في تصدير القمح فقط بل وفي أسعاره كذلك.

وهكذا فإن المسألة الغذائية تفجر بالضرورة مسألة الماء؛ حيث إن الماء هو العنصر الأساس للزراعة القادرة بدورها على سد تلك الفجوة الغذائية. وبالطبع لا تقتصر أهمية الماء على مسألة الزراعة؛ فالماء ضروري للتصنيع أيضاً، فضلاً عن أهميته لتلبية الاستهلاكات البشرية المباشرة من مياه شرب وغسيل وغيرها، وليس عبثاً بالطبع أن تكون معظم الحضارات قد نشأت حول مصادر المياه.

ومشكلة المياه في الوطن العربي ذات أبعاد كثيرة؛ فالوطن العربي يقع في الحزام الجاف وشبه الجاف من العالم، وتقل فيه الموارد المائية المتجددة عن ١٪ من المياه المتجددة في العالم، ونصيب الفرد العربي من المياه ١٧٤٤ متراً مكعباً سنوياً، في حين أن المعدل العالمي يصل إلى ١٢٩٠٠ متر مكعب سنوياً، ومعدل هطول الأمطار في الوطن العربي بين ٥ - ٤٥٠ ملم سنوياً، في حين يتراوح في أوروبا مثلاً بين ٢٠٠ - ٣٠٠٠ ملم سنوياً. وتمثل الصحارى في الوطن العربي مساحة ٤٣٪ من إجمالي المساحة الكلية للوطن العربي، وفي عام٢٠٠٥م حيث بلغ عدد سكان الوطن العربي ٣٠٠ مليون نسمة فإن عجز الموارد المائية العربية وصل إلى ١٢٧ مليار متر مكعب؛ وذلك لأن حجم الموارد المائية المتاحة يبلغ ٣٣٨ مليار متر مكعب سنوياً لا يستثمر منها إلا ١٧٣ مليار متر مكعب! في حين أن الوطن العربي يحتاج لتلبية

احتياجاته من المياه - إذا أحسن استخدامها، وتم عمل خطط لسد الفجوة الغذائية - إلى حوالي ٥٠٠ مليار متر مكعب من المياه سنوياً.

والموارد ومصادر المياه في الوطن العربي تتمثل في الأمطار والمياه السطحية « الأنهار » والمياه الجوفية، ولعل المشكلة حول المياه السطحية « الأنهار » هي الأهم؛ فالمياه السطحية المتاحة حالياً للوطن العربي تبلغ ١٢٧. ٥ مليار متر مكعب سنوياً، تحوز ثلاثة أقطار عربية حوالي ٧١٪ منها، هي مصر والعراق والسودان، ومن المفروض أن يزيد حجم الموارد السطحية ليصل إلى ٢٥٦ مليار متر مكعب من المياه؛ أي ضعف ما هو متاح حالياً عن طريق مشروعات الري والسدود مثل قناة جونجلي في السودان.

وإذا أدركنا أن ٦٧٪ من مياه الأنهار « المياه السطحية » في البلدان العربية تأتي من خارج بلادهم لعرفنا حجم ما يمكن أن يحدث من مشكلات إذا قام العرب بعمل تنمية أو سدود تؤدي إلى زيادة مواردهم، وعلى سبيل المثال فإن نهر النيل ينبع من إثيوبيا « النيل الأزرق » ، وبحيرة فكتوريا « النيل الأبيض » ، ويمر في تسع دول إفريقية هي « إثيوبيا، كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندي، والكونغو والسودان ومصر » ، ويقطع مسافة من أبعد منابعه على روافد بحيرة فكتوريا نيانزا في قلب إفريقيا إلى ساحل رشيد على البحر الأبيض المتوسط في مصر حوالي ٦٧٠٠ كم.

أما نهرا الفرات ودجلة فينبعان من الجبال الواقعة شمال تركيا، ويمر الفرات عبر سوريا ثم العراق. أما نهر دجلة فيمر من تركيا إلى العراق مباشرة.

وبالنسبة لنهر النيل - مثلاً - الذي تعتمد مصر عليه اعتماداً شبه كامل في اقتصادياتها وخاصة الزراعة؛ فإن نصيب مصر منه يصل الآن إلى ٥٥. ٥ مليار متر مكعب سنوياً، والسودان إلى ١٨. ٥ مليار متر مكعب سنوياً، وبديهي أن مصر والسودان يسعيان إلى زيادة مواردهما من مياه النيل عن طريق مجموعة من المشروعات، وهذه المشروعات لن تؤثر على

حصة دول المنبع؛ لأن المياه قد تركت أراضيهم بالفعل من ناحية، ولأن هذه الدول لها مصادر مياه غنية جداً، فإثيوبيا مثلاً التي يأتي منها ٨٥٪ من مياه النيل المستخدمة في مصر ليست في حاجة إلى مياه النيل أصلاً؛ لأن مواردها المائية أعلى كثيراً من احتياجاتها، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة؛ حيث تسعى قوى عالمية وإقليمية لحرمان مصر من حصة كبيرة من المياه أو منعها على الأقل من زيادة مواردها من تلك المياه؛ فإسرائيل تسعى إلى زيادة نفوذها في القرن الإفريقي ومنطقة البحيرات الكبرى، وكذلك أمريكا التي نجحت أخيراً في تحقيق أكبر قدر من النفوذ على كل من إثيوبيا وأوغندا والكونغو « ميذكابيلا » ورواندا وبورندي.

والمخططات المعادية لمصر في هذا الصدد كثيرة وهناك مخطط قديم يقضي بمحاولة تحويل مجرى النيل في إثيوبيا، وقد قام المكتب الأمريكي لاستصلاح الأراضي بعمل الدراسات الخاصة به إلا أنه بالطبع لم ينفذ، ولكنه يشكل فكرة في الأدراج يمكن تنفيذها فيما بعد للضغط على مصر، وهناك الآن عدد من الدراسات الجاهزة لإقامة سدود على النيل في إثيوبيا سوف يمولها البنك الدولي تؤثر على حصة مصر من المياه بنسبة ٢٠٪ سنوياً، أي ٧ مليارات متر مكعب من المياه، بل ووصل التفكير إلى حد أن هناك خطة تقضي بتحويل كل مصادر المياه في تلك المنطقة لتصب في منطقة البحيرات العظمى في وسط القارة كخزان عملاق للمياه، ثم بيع هذه المياه لمن يريد ويدفع الثمن كالبترول تماماً، ويمكن كذلك تعبئتها في براميل تحملها السفن أو عن طريق أنابيب لبيعها لدول خارج القارة، وتطالب إسرائيل أيضاً بمدها بنصيب من مياه النيل عن طريق سيناء، وإلا قامت بإحداث متاعب لمصر في منابع النيل في إثيوبيا ومنطقة البحيرات.

وفي الحقيقة فإن المطامع الإسرائيلية في مياه النيل قديمة قدم المشروع الصهيوني ذاته، فقد تقدم الصهاينة في بداية هذا القرن بمشروع إلى اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر لهذا الغرض إلا أن ذلك المشروع قد رُفض، وفي عام ١٩٧٤م قام مهندس إسرائيلي

« إليشع كيلي » بتصميم مشروع لجلب المياه لإسرائيل من الدول المجاورة على أساس أن إسرائيل ستعاني من مشكلة مياه في المستقبل، ويتلخص المشروع بالنسبة لنهر النيل في توسيع ترعة الإسماعيلية حتى يزيد معدل تدفق المياه داخلها إلى ٣٠ متراً مكعباً في الثانية، ونقل هذه المياه عن طريق سحارة تمر أسفل قناة السويس، ثم تصب المياه على الجانب الآخر من القناة في ترعة مبطنة بالإسمنت لمنع تسرب المياه، وتصل هذه الترعة إلى ساحل فلسطين المحتلة وتل أبيب، ثم في خط آخر يتجه جنوباً نحو بئر السبع لعرب صحراء النقب، وتسعى إسرائيل وفق هذه الخطة إلى الحصول على ٨ مليارات متر مكعب من المياه سنوياً من النيل، وقد تكرر الحديث عن هذا المشروع فيما بعد خاصة بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٩م.

وبالنسبة لنهر الفرات الذي ينبع من تركيا ويمر في سوريا والعراق، فلقد نشأت حول حصص المياه والتدفق في هذا النهر العديد من المشاكل بين كل من تركيا وسوريا والعراق، وتستخدم تركيا مسألة المياه للضغط السياسي على سوريا مثلاً، ومن الناحية الفنية فإن سوريا لديها عجز في المياه يقدر بحوالي مليار متر مكعب سنوياً، ومع قيام تركيا بمشروعات كبرى على نهر الفرات تقضي بإنشاء ١٣ سداً، نفذت بالفعل منها سد أتاتورك عام ١٩٩٠م؛ فإن معدل التدفق في النهر قد انخفض مما أثر على كل من سوريا والعراق، كما أن قيام سوريا بدورها بإنشاء سدود على الفرات يؤثر على العراق الذي يصل إليه النهر في النهاية، بل قد وصلت الأمور إلى حافة الصدام بين سوريا والعراق عام ١٩٧٤م.

وهناك مشروعات يتم التفكير فيها الآن خاصة بعد التحالف العسكري التركي الإسرائيلي بنقل المياه من تركيا إلى إسرائيل عبر أنبوب طويل يسير في البحر المتوسط إلى شواطئ إسرائيل، وهذا يحقق لتركيا موارد مالية من بيع المياه، ويحقق لإسرائيل تلبية حاجاتها من المياه بثمن بسيط، ولكن هذا بالطبع سيكون على حساب كل من سوريا والعراق.

كانت المياه من أهم العوامل التي نشأت بسببها الحروب بين العرب و (إسرائيل)، فالعمليات العسكرية الإسرائيلية على الحدود السورية اللبنانية عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م كانت بسبب الأطماع الإسرائيلية في مياه نهر الأردن ونهر بانياس ونهر اليرموك ونهر الحاصباني، كما كان من أسباب حرب ١٩٦٧م موضوع تحويل مجرى نهر الأردن، وفي عام ١٩٨٢م شنت إسرائيل حملة عسكرية على لبنان كان من أهدافها أطماع إسرائيل في نهر الليطاني.

وتسعى (إسرائيل) كما ذكرنا من قبل إلى الحصول على مياه نهر الفرات من تركيا مباشرة، وكذلك الحصول على حصة من مياه نهر النيل عن طريق قناة الإسماعيلية باتجاه النقب وساحل (إسرائيل).

وتعتبر المياه محوراً هاماً من محاور الفكر الصهيوني؛ فبعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م تقدم حاييم وايزمان رئيس المؤتمر الصهيوني آنذاك إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا طالباً تحسين حدود إسرائيل حسب وعد بلفور، لتضم حوض الليطاني وجبل الشيخ وحرمون أي تضم أنهار الأردن وبانياس واليرموك.

ويقول الصهيوني بلسان هوارس عام ١٩٢١م: « إن مستقبل فلسطين بأكمله هو بين أيدي الدولة التي تبسط سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الأردن » .

وأعلن ديفيد بن جوريون عام ١٩٥٥م « أن اليهود يخوضون مع العرب معركة المياه، وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير إسرائيل، وأننا إذا لم ننجح في هذه المعركة فإننا لن نبقى في فلسطين » .

ومن المعروف أن الحدود الإسرائيلية المستهدفة طبقاً للخريطة المعلقة على الكنيست في إسرائيل هي من النيل إلى الفرات أي من ماء إلى ماء.

على كل حال فإن إسرائيل توفر حاجاتها المتزايدة من المياه التي تصل ٣. ٥ مليار متر مكعب حالياً، وتريد إسرائيل زيادتها إلى ١٢ ملياراً للتوسع في مشروعاتها، وتحصل عليها

الآن إما من سرقة مياه الآبار العربية بوسائل تكنولوجية معقدة داخل الأراضي المحتلة، أو من مشروعات تستهدف السيطرة على أكبر قدر ممكن من مياه الأنهار العربية وحرمان الآخرين منها خاصة على أنهار الليطاني والحاصباني وبانياس واليرموك والأردن. وبالطبع فإن الفجوة المائية بين ما تنهبه إسرائيل حالياً من المياه العربية وبين ما تستهدف نهبه يمكن أن يشكل عنصراً هاماً من عناصر اندلاع حروب قادمة في المنطقة.



مستقبل العمل السياسي في مصر بعد التعديلات الدستورية

بعد أن تم إنجاز ما أرادته الحكومة من تعديلات دستورية بعد موافقة مجلس الشعب المصري عليها، تم الإسراع بطرحها على الاستفتاء الشعبي، ومن ثم الحصول على موافقة الشعب عليها، فإن ثمة سؤال محوري طرح نفسه عن أثر تلك التعديلات على شكل ومستقبل الحياة السياسية في مصر.

بداية فإن المعارضة المصرية كانت قد رفضت هذه التعديلات وانسحبت من جلسة مجلس الشعب التي تم فيها طرح الموضوع ثم دعت إلى مقاطعة الاستفتاء، ولكن الحكومة نجحت في النهاية في تمرير المسألة برمتها دون خسائر تذكر.

ويرى المراقبون أن ما طرحته المعارضة من أسباب لرفضها للتعديلات كانت تقتضي ليس فقط مقاطعة جلسة مجلس الشعب المذكورة وليس فقط الدعوة إلى مقاطعة الاستفتاء بل إن الأمر كان يقتضي انسحاباً كاملاً لهؤلاء المعارضين من الحياة السياسية برمتها، ومن ثم إعطاء رسالة بأن المسألة كلها لم تعد تُحتمل ولا يمكن استمرار القوى والأحزاب التي رفضت التعديل في العمل السياسي بعد هذه التعديلات، لأن الأسباب التي طرحتها المعارضة في الرفض كانت تقول: إن الأمور بهذه الطريقة تسير إلى طريق مسدود وتغلق أفق التغيير، ومن ثم فإن قبول الاستمرار بهذه الطريقة يعني القبول بدور الديكور لا أكثر ولا أقل.

دارت التعديلات حول:

تحديد واضح لمن سوف يتم له السماح بخوض معركة الانتخابات الرئاسية، وفيها من الشروط ما يجعل من المستحيل عملياً دخول شخصيات مستقلة، أو من الإخوان المسلمين لتلك الانتخابات، وحصرها على مرشح الحكومة أومن تسمح ـ لأسباب معينة ـ له هذه الحكومة بخوض الانتخابات.

عدم السماح بالعمل السياسي استنادا إلى الدين.. وتستهدف بالطبع منع الإخوان المسلمين من العمل السياسي، وتجريم ذلك، بالإضافة لكل التيارات الإسلامية، بل إن المراقبين يرون أن هذا النص مقصود به التيارات الإسلامية دون غيرها، لأن العمل السياسي المسيحي حاليا يتم من خلال الكنيسة.

وهكذا فنحن في الحقيقة أمام احتكار السلطة للمرجعية الدينية وليس حظر المسألة على الجميع، فهي محظورة على المعارضة فقط. أما الحكومة فهي تستخدم المرجعية الدينية متى شاءت.

ومن بين التعديلات الدستورية التي حرصت الحكومة على تمريرها:

إلغاء الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات بمعنى إشراف القضاء على كل مراكز الاقتراع تصويتا وفرزا وإعلاناً للنتائج، واقتصر الأمر على اللجان الرئيسية وتم استبدال الأمر بإنشاء هيئة عليا للانتخابات يتم تمثيل القضاة فيها، ويرأسها أحد رؤساء الجهات القضائية، ومن ثم فإن إمكانية التلاعب في عملية التصويت داخل المراكز الفرعية واردة جداً، وهذا بالضبط ما كان يتم قبل إدخال الإشراف القضائي الكامل، أي هي عودة للأوضاع السابقة، ومحصلة ذلك أن من الصعب ضبط الأمور ومن ثم فتح الباب أمام التدخلات الأمنية والسياسية والشخصية وصبغ النتيجة النهائية بما تريده السلطة، وهذا يعني انسداد أفق التغيير فالحكومة أصبحت قادرة على تحديد نسبة وعدد من ينجح من المعارضة على حسب هواها.

إعطاء الرئيس حرية تحويل الأفراد لأي نوع من القضاء، المدني أو العسكري، وهذا يعني مباشرة أن المعارضين سيصبحون تحت رحمة القضاء العسكري وهذا يستهدف بالطبع إضعاف واستبعاد كل الأصوات المعارضة من الحياة السياسية.

وفي الحقيقة فإن تأمُّل ما حدث قبل الاستفتاء، وملاحظة عملية الاستفتاء نفسها يعطينا الدلالة المباشرة على أن العمل السياسي المصري لن يزداد ثراءً، بل سوف يتراجع وسوف يزداد انصراف الناس عنه، وكذا إذكاء الإحساس الطائفي لدى الناس، فمن ناحية فإن الطرف المسيحي في المسألة متحالفاً مع العلمانيين كان قد شوش على المادة الثانية من الدستور التي تنص على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام والشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، وصحيح أن المسألة لم تحقق الهدف منها بإلغاء تلك المادة، بل ظلت كما هي ولكن تم حصارها بمواد أخرى تتحدث عن عدم مرجعية الإسلام للعمل السياسي، كما أن ما تم من حوار ونقاش وسجالات حول هذا الموضوع أعطى للمسلمين رسالة استفزاز سيكون لها أثرها، فقد تم تناول الموضوع بصورة استفزازية خاصة من قبل العلمانيين الذين اعتبروا المرجعية الإسلامية نوعاً من الطائفية.

أما الطرف المسيحي فقد استخدم طريقة الشد والجذب فبعض القساوسة الرسميين طالب بذلك، إلا أن البابا شنودة عاد وطلب عدم فتح هذا الموضوع لأن الوقت غير مناسب، وبديهي أن المسألة لا تصب في مصلحة إثراء العمل السياسي، بل تراجعه لحساب العمل الطائفي، وكذا استبعاد قطاعات مهمة من المجتمع من الحساب السياسي، وكلها أمور تقود إلى السلبية وتراجع مستوى العمل السياسي.



التحولات النضالية في فلسطين المحتلة من العلمانية إلى الإسلام

الأسباب والدلالات

بداية يجب أن نتعامل مع أي ظاهرة في جوهرها الأساسي دون إغفال الجوانب الأخرى الثانوية طبعاً، ومن ثم فإن الاقتراب من هذا الموضوع « موضوع التحولات النضالية في فلسطين المحتلة من العلمانية إلى الإسلامية خلال أربعين سنة من احتلال المسجد الأقصى عام ١٩٦٧ » ، يقتضي بالطبع أن نضع مجموعة من الحقائق كالتالي:

- أن الإسلامية، والوجدان الإسلامي، والنضال الإسلامي هو الأصل، وأن العلمانية بكل روافدها وأفكارها ما هي إلا تيارات لقيطة ومن ثم فإن العودة إلى الأصل هو الأمر الطبيعي جداً، بل هو نوع من التعبير عن أن هذه الأمة ما زالت تتمتع بصحة داخلية وبنيان ثقافي قوي رغم عوامل الضعف الخارجية.

- أن النضال استناداً إلى الوجدان الإسلامي كان هو الأصل دائماً ليس في فلسطين وحدها بل في كل المنطقة العربية والإسلامية وأن الرموز التي قادت حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار من الشيشان إلى أفغانستان إلى العراق وسوريا وفلسطين ومصر والمغرب العربي وليبيا وإفريقيا، وإندونيسيا والهند... إلخ كلها كانت إسلامية وكانت تستند على الوجدان الإسلامي للجماهير ونطالع في هذا الصدد أمثال الشيخ شامل، وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار ومصطفى كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام وغيرهم على طول ساحة العالم الإسلامي عموماً والعربي خصوصاً.

- أن الجماهير لم ولن تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي، وهذا أمر طبيعي ومفهوم، ولذا فإن الحركات التي قادت الجماهير في عملية المقاومة كانت لا بد أن تستند إلى الإسلام، وبخصوص فلسطين مثلاً، فإن المقاومة الإسلامية كانت هي الأصل « عز الدين القسام » والهبات الجماهيرية كانت مرتبطة بالمسجد الأقصى « هبة حائط البراق سنة ١٩٢٩ »

إلى انتفاضة الأقصى الأولى ١٩٨٧، والثانية ٢٠٠٣.

- أن الحركات التي خطفت النضال الفلسطيني مثلاً تحت شعارات قومية أو يسارية لم تفعل شيئاً أصلاً، ووصلت إلى طريق مسدود، وحتى من كان نصيبه من الاستمرار لم يكن معياري الوجدان الإسلامي للأمة مثل حركة فتح وللاسم والتاريخ والممارسة دلالاتها في هذا الصدد، ويكفي أن تعرف أن الجناح العسكري لحركة فتح هو كتائب شهداء الأقصى وهو اسم له دلالاته الدينية الإسلامية.

- أن المشروع العلماني برمته كان قد سقط على أرض فلسطين تحديداً، فقد انتهى المشروع العلماني الليبرالي بهزيمة في عام ١٩٤٨ وانتهى المشروع العلماني القومي واليساري بهزيمة في عام ١٩٦٧.

- أنه لم ينقطع يوماً النضال الإسلامي على أرض فلسطين بدءاً من هبة حائط البراق، وثورة ١٩٣٥ «ثورة عز الدين القسام» ومقاومة الإخوان المسلمين في ١٩٤٨، واستمرار العمل الجهادي الإسلامي في غزة والضفة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧، ثم تصاعد هذا العمل وبروزه من جديد مع الانتفاضة الأولى ١٩٨٧.

- إن الإبعاد العمدي والقسري والإعلامي لهذا التيار عن واجهة النضال كان أحد أسباب الهزيمة وكان أمراً مبيتاً بليل وجزء من مؤامرة دولية وإقليمية واسعة النطاق.

وفي الحقيقة فإن الوجدان الإسلامي للأمة عموماً وللشعب الفلسطيني خصوصاً يحتم إسلامية الصراع، فنحن بالطبع لا نخاطب حجارة بل نخاطب بشراً لهم وجدان وثقافة وحضارة ومن ثم فإن من العلمية والموضوعية مخاطبة الناس من خلال ما يفهمون وهذا بصرف النظر عن رأينا في الثقافة الإسلامية سلباً أو إيجاباً بل إن المناضلين الشرفاء حتى من التيارات الأخرى وصلوا إلى تلك القناعة، قناعة أن الناس لن تتحرك ولن تنخرط بالتالي في مشروع المقاومة إلا من خلال الوجدان الإسلامي وهذا الأمر كان واضحاً في كل الهبات

والانتفاضات الجماهيرية الفلسطينية على طول تاريخ الصراع ومحطاته الرئيسية.

من ناحية أخرى فإن ارتباط أرض فلسطين بالنص الديني والمعاني الإسلامية باعتبارها أرض وقف إسلامي، وباعتبارها أرضاً مقدسة، وباعتبارها تضم أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين يذكي ويؤيد هذا الطرح ويعطي عمقاً واسعاً وجوهرياً للصراع فالصراع لن يكون فقط قاصراً على الفلسطينيين بل كل العرب والمسلمين وهذه ورقة لا يخسرها إلا أحمق ومن ثم فإن الإسلامية شرط لوجود عمق استراتيجي لأي حركة مقاومة.

من ناحية ثالثة فإن طبيعة الصراع، وطبيعة الكيان الصهيوني وطبيعة الغزوة كلها تقود إلى اتجاه الإسلامية، فالصراع جزء من الصراع التاريخي بين الإسلام والغرب والذي بدأ في حياة الرسول ﷺ واستمر في الزمان والمكان مع الدولة البيزنطية ثم مع الدولة الرومانية ثم في الأندلس ثم الصراع بين الدولة العثمانية وأوروبا وأخيراً الاستعمار والصهيونية، وإغفال هذه النقطة يقود إلى نتائج وخيمة وليقل لي أي محلل موضوعي، ما هو المبرر العسكري والاقتصادي والسياسي لدعم الغرب لإسرائيل إلا العداء للإسلام أولاً وأخيراً، فإسرائيل شركة اقتصادية خاسرة وعسكرية خاسرة أيضاً، وكان من الممكن للغرب وأمريكا أن يحقق مصالحه في العالم العربي أفضل بكثير في حالة عدم وجود إسرائيل وهكذا فالمسألة لا مبرر لها إلا الوجدان الغربي الصليبي وفي الحقيقة فإن الإشارات والتصريحات والتحركات الغربية كلها تعطي انطباعاً واضحاً وقوياً ومباشراً بالعداء للإسلام ورموز الإسلام، وهذه ولا شك تصل إلى وجدان الناس والرد الطبيعي على ذلك هو رد التحدي بتحدي مكافئ، فإذا كانت المسألة مسألة صليبية فلا بد من مواجهتها استناداً إلى الروح الإسلامية وإلا كانت المسألة هروباً من المعركة أو صياغتها على هوانا وليس كما هي حقيقتها وهذا هو الخسران بعينه، وبالنسبة للكيان الصهيوني ذاته فهو رؤية توراتية دينية عنصرية بالنسبة لليهود، ولا بد من رد إسلامي ولكن غير عنصري عليها، وهكذا فإن طبيعة الصراع تحتم الإسلامية.

التحولات النضالية من العلمانية إلى الإسلام كانت أمراً طبيعياً إذن بالنسبة لطبيعة الصراع، وبالنسبة لطبيعة التحدي الصهيوني، وبالنسبة للتاريخ والجغرافيا، وبالنسبة لخصوصية أرض فلسطين، وبالنسبة لطبيعة التشكيل الإجرائي لجماهير الأمة، وربما يكون السؤال الصحيح لماذا حدث ذلك في الأربعين سنة الأخيرة، وتحديداً بعد سقوط المسجد الأقصى في يد اليهود؟، والمسألة في رأيي جزء من طبيعة الأشياء التي يجلوها مرور الزمن، وجزء أيضاً من انكشاف العداء الغربي للإسلام في السنوات الأخيرة، وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، وجزء من أن القوى العلمانية التي تصدرت الساحة يوماً لم تكن تستند إلى عمق جماهيري حقيقي بل كانت الحاضنة الإسلامية لها ضعيفة جداً، والحاضنة الحقيقية لها كانت قوى دولية فلما سقطت تلك القوى، كان من الطبيعي أن تسقط القوى المرتبطة بها.

***

الإسلامية وحدها بالطبع لا تكفي، صحيح أنها الشرط الأساسي لاستمرار ونجاح أي حركة، ولكن بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تأخذ أي حركة بالأسباب العلمية والموضوعية، وأن تتمسك بمدد الله والتقوى حتى ليقال أنها لم تترك للأسباب شيئاً، وتتمسك بالأسباب حتى ليقال أنها لم تترك للتقوى شيئاً على حد قول الصديق أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، وأن تحاول تلك الحركة أن تحشد الأمة كل الأمة في المعركة، باعتبار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وألا تتصرف بديلاً عن الجماهير، وألا تسقط في فخ المعارضات بل تتمسك دائماً بالكفاح الشعبي طويل المدى وأن تدرك أن الوعد الإلهي بزوال إسرائيل قادم إن شاء الله متى أخذنا بالأسباب وحققنا شروط النصر وكنا الجيل الذي يستحق هذا الشرف.

الحوار الأمريكي الإخواني.. جري وراء السراب

ليس جديدًا على الساحة السياسية والثقافية أن توجه بعض الأطراف للإخوان المسلمين تهمة الحوار، أو الاتصال بدوائر أمريكية، بحثية أو إعلامية أو سياسية. وكثيرًا ما تكون التهمة ملفّقة أو مبالغاً فيها، ولكنّ هذا لا يبرّئ ساحة الإخوان المسلمين من هذه التهمة تماماً، ذلك أنه من المرجَّح أن هناك نوعاً من الاتصالات يتمّ بطريقة ما، ربما عن طريق شخصيات، لا تنتمي رسمياً إلى الإخوان، تقيم في أمريكا أو الغرب، وتقوم بهذه الاتصالات على أساس نقل رسالة معينة للأمريكان، فإن نجحت المهمة كان بها، وإن لم تنجح وتم كشفُها قال الإخوان: إن هذا الشخص لا يمثلهم، ولا علاقة له بهم من قريب أو من بعيد. ولسنا هنا بصدد إدانة أو تبرئة هذا النوع من الاتصال، ولكننا نناقش المسألة فقط، دون أن نجزم بوجود أو عدم وجود أو وقوع هذا الاتصال.

الداعون إلى مثل هذا الاتصال يسوّغونه بأن الحوار فريضة إسلامية، وأن الله تحاور مع الشيطان، فلماذا لا يتحاور الإخوان مع الأمريكان؟ وأنه لا ينبغي أن تحكمَنا عقدة الخوف من الحوار، ولابد من كسر الحواجز النفسية، والتحرر من العُقد قديمِها وحديثِها. وعلى الطرف الآخر، فإن الجهات الحكومية المصرية تعتبره جناية كبرى، ليس لأن ذلك الاتصال ضارٌ بالإسلام، أو الحركة الإسلامية، أو العرب، أو مصر، ولكن لأنهم يشعرون بأن الإخوان يشكّلون بالفعل قوةً كبيرةً في الشارع، ومن ثَمّ فإن الحوار مع الأمريكان يشكّل إمكانية اعتبار الأمريكان لهم كبديل، ومن ثَمّ يكونون خطرًا مباشرًا على الحكومة المصرية، لا تطيقه، ولا تقبله تلك الحكومة. وربما يمكن تفسير الضربات الحكومية للإخوان المسلمين في مصر بأنها عادةً تتعقب مثل هذا الحوار.

وما زلنا نقول: إن الحكومة لم تُقدّم دليلاً جذرياً حتى الآن لإثبات هذا الحوار على الإخوان.

هذه الضجة حول الحوار الإخواني- الأمريكي جاءت بمناسبة زيارة النواب الأمريكيين من الكونجرس الأمريكي بمجلسيْه: النواب، والشيوخ لمصر، برئاسة الرجل الثاني في مجلس النواب ستيني هوير، ولقائهم بالمتحدث الرسمي للإخوان بمجلس الشعب، الأستاذ سعد الكتاتني، مرتين، تمّ إحداها في مجلس الشعب المصري علناً، في إطار لقاء المجموعة البرلمانية الأمريكية بعدد من النواب المصريين، من بينهم رئيس مجلس الشورى المصري وعددٍ من نواب الحكومة والمعارضة، والثاني تمّ في مبنى السفارة الأمريكية في القاهرة، وضمّ أيضاً ممثلي الإخوان، بالإضافة إلى ممثلين للحكومة والمعارضة على حدٍ سواء، وهذا أيضاً لقاء علني ومعروف سلفاً، وتمّ بدعوة من السفير الأمريكي. وبديهي أن ما هو مباح وحلال لنواب الأغلبية والمعارضة المصرية، هو أيضاً مباح ومتاح لممثلي الإخوان، وإلاّ كانت معاييرنا مزدوجة؛ لأن الأمر ليس فيه شيء خطأ من الناحية الشكلية والجوهرية معاً، قياساً على هذا المبدأ، ومن ثَمّ فإن الضجة التي حدثت إزاء تلك اللقاءات مفتعلة، ومفتقرة إلى الموضوعية. على أن للمسألة بعدًا آخراً، خطيراً وهاماً لا عَلاقة له بالتجريم والتحريم الحكومي، وهو هل مثلُ تلك الحوارات واللقاءات مفيدة حقاً للإخوان؟ أم أنها في المحصّلة الأخيرة ضارةٌ بهم، وبالحركة الإسلامية عموماً؟

في إطار اللقاء الأخير مثلاً، الذي تمّ بين الكتاتني وهوير فإن السيناتور هوير نفسه حاول التنصُّل من تبِعة هذا اللقاء، وقال المتحدث الرسمي باسمه: إنه ليس له ذنب في اللقائين؛ لأن أحدَهما تمّ بناءً على دعوة رئيس مجلس الشعب المصري، والثاني تمّ بناءً على دعوة السفارة الأمريكية في القاهرة للسيد سعد الكتاتني، وأن هوير لم يطلب لقاء الكتاتني على الإطلاق. وردّت السفارة الأمريكية على ذلك بقولها: إن دعوة سعد الكتاتني بالتحديد للقاء هوير في منزل السفير الأمريكي بالقاهرة، تمت بناءً على رغبة السيناتور هوير شخصياً، إذن فإن الطرفين يتملّصان من هذا اللقاء!!

من طرف الإخوان فإن الأوساط الإخوانية اعتبرت اللقاء نقلةً إيجابيةً في السياسة الخارجية الأمريكية، فهل هي حقاً كذلك؟

وبدايةً يجب أن نُقرّ أن الحوار بالفعل فريضة إسلامية وأننا لا نرفض الحوار، شريطة ألاّ يكون حبٌّ من طرف واحد أو جريٌّ وراء السراب.

ونحن هنا في باب نصيحة الإخوان المسلمين، وليس التشنيع عليهم، فمن غير المعقول ولا المقبول لقاء الذين يقتلون أهلَنا في العراق وفلسطين وأفغانستان والصومال، ويحاصرون السودان!! وإلاّ نكون بهذا نضرب المناضلين في تلك الأماكن في ظهورهم.

ومن ناحية ثانية، فإن الموقف الاستراتيجي الأمريكي كان ولا يزال يرفض السماح لأي اتجاه إسلاميّ بالوصول إلى السلطة، مهما كان معتدلاً.

والتقرير الأخير الصادر عام ٢٠٠٧ لمؤسسة راند - وهي كبرى المؤسسات البحثية الأمريكية والتابعة لسلام الطيران الأمريكي - قال صراحةً: إنه ليس هناك معتدلون ومتطرفون في الحركة الإسلامية، وأنه وإن كان للحوار مع هذه الحركات بعض الفائدة، فإن أضرارها أكثر، وإن أمريكا لن تسمح بوصول هؤلاء إلى السلطة، بل وعرّفت الاعتدال بأنه: عدم الدعوة إلى الشريعة سرًا أو علناً، وعدم اعتبارِها مرجعيةً، بل وضرورة الإعراب عن رفض تطبيقها، وكذلك ضرورة الاعتراف بإسرائيل، والقبول بالكيان الصهيوني، وعدم ممارسة أيِّ شكل من أشكال المناهَضة له.

وإذا كان هذا هو رأي الأمريكان ففيم يكون الحوار إذن؟ اللهم إلاّ أن يكون حباً من طرف واحد أو جرياً وراء السراب.

كلمة أخيرة: هناك فرقٌ بين الرسالة الإعلامية الموجّهة إلى الشعوب الأخرى، وبين الحوار مع مسؤولين أمريكيين، وهذا أمر مفهوم طبعاً للإخوان ولغيرهم.

الحرب العالمية الرابعة

اعتبر البروفيسور « إليوت كوهين » أن الحرب الباردة ضد الشيوعية كانت الحرب العالمية الثالثة، وأن أمريكا والغرب الرأسمالي قد حقق فيها انتصارًا ساحقاً، وهو ما عبر عنه الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه المعنون « نصر بلا حرب » وحسب البروفيسور إليوت كوهين أيضًا؛ فإن أمريكا تعتبر نفسها الآن تخوض الحرب العالمية الرابعة ضد العالم الإسلامي تحت اسم مواجهة الإرهاب الإسلامي، وفي الحقيقة فإن الوجدان الغربي الصليبي كان ولا يزال قويًا، وهذا الوجدان الصليبي العميق في تلافيف العقل الغربي وجد الآن من يستغله متمثلاً في عصابة اليمين الأمريكي الجديد التي ركبت إدارة جورج بوش الابن واستغلت أحداث ١١ سبتمبر لنشر أفكارها وتنفيذها حول السيطرة على العالم، ومفاهيم الإمبراطورية الأمريكية الجديدة؛ وهي مفاهيم وأفكار سابقة بالطبع على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، حيث إن فكرة اعتبار العالم الإسلامي خطرًا على الحضارة الغربية فكرة سابقة على أحداث ١١ سبتمبر، وهي فكرة تقليدية في الوجدان الغربي أولاً، وتصاعدت بقوة في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي بمناسبة سقوط الخطر الشيوعي وتفكك الاتحاد السوفييتي السابق والمنظومة الاشتراكية الدولية، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة تنتقل من الحرب العالمية الثالثة إلى الحرب العالمية الرابعة.

الحرب على الإسلام

وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي الأسبق « ريتشارد نيكسون » في كتابه «الفرصة السانحة»؛ حيث اعتبر أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية خطيرة وأنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المادية سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وأن الغرب سوف يتحد مع الاتحاد السوفيتي ليواجه هذا الخطر - كان ذلك قبل تفكك الاتحاد السوفيتي-.

ويقول إدوارد سعيد المفكر الفلسطيني: « إن هناك قوى في أمريكا والغرب نجحت في نشر صورة سلبية عن الإسلام باعتباره خطرًا على الحضارة الغربية » ، وقد كتب إدوارد سعيد هذا الكلام عام ١٩٨١ ومن ذلك أن هناك قوى تُهيئ الرأي العام الغربي منذ فترة طويلة لقبول الحرب العالمية الرابعة ضد الإسلام، وعند سقوط الاتحاد السوفيتي السابق بررت مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية السابقة استمرار وتقوية حلف الناتو بوجود الخطر الإسلامي، وهو نفس ما عبّر عنه رئيس مجلس الوزراء الأوروبي الأسبق « جياتي ديميلكس » قائلاً لمراسل مجلة النيوزويك الأمريكية عندما سأله عن السبب في بقاء حلف الأطلنطي بعد نهاية المعسكر الشيوعي: « صحيح أن المواجهة مع المعسكر الشيوعي قد انتهت، ولكن هناك مواجهة أخرى لابد أن نستعد لها وهي مواجهة العالم العربي والإسلامي، وعلى أوروبا أن تحلّ مشكلاتها لتتفرغ لهذا العدو الخطير » .

والحقيقة التي لا مراء فيها حتى بصرف النظر عن تصريحات هؤلاء الزعماء والقادة الغربيين وغيرهم وهي كثيرة جدًا بطريقة لا يكاد يعيها الإنسان وربما لا يصدقها من شدة تطرفها وصليبيتها وعنصريتها وغطرستها.

الحقيقة التي لا مراء فيها أن الصراع بين الإسلام والغرب امتد في الزمان وفي المكان من غزوة تبوك وحتى العدوان على العراق مرورًا بحروب الأندلس والحروب الصليبية والاستعمار والصهيونية... إلخ، وأن القرآن الكريم قد عبّر عن ذلك وهو الصدق المطلق ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [سورة البقرة الآية ٢١٧].

الخوف من الإسلام والحرب على الإسلام لها أسبابها التاريخية والوجدانية والمصلحية في الوجدان الغربي وإذا كنا ندرك أن عصابة اليمين الأمريكي ودعاة الإمبراطورية الأمريكية الذين يحلمون بسيطرة أمريكا على العالم قد أعدوا الخطط لذلك من قبل عام ١٩٩٧ على الأقل على يد ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وبول وولفوديتز وريتشارد بيرل وجيمس ولس

وويليام كريستول وروبرت كاجان وغيرهم من الذين وقّعوا على ما يسمى « الإعلان الإمبراطوري الأمريكي » عام ١٩٩٧؛ فإن هؤلاء أدركوا أن الطريق إلى تلك الإمبراطورية الأمريكية لن يكون سهلاً ولا متوقعًا إلا إذا تمت إزاحة العقبة الإسلامية المتمثلة في وجود مفاهيم وأفكار إسلامية حول المقاومة والكفاح والجهاد والدفاع عن المستضعفين وعدم قبول الخضوع وغيرها...، وأنه لابد من إزالة ذلك بالحرب والسلام وبالدعاية والإعلام معًا.

صناعة الحروب

وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤسسة شديدة التأثير في السياسة الأمريكية، وهي المجمع الصناعي العسكري الرأسمالي من مصلحة اختراع الحروب لترويج صناعة السلاح، وكذا فإن التحدي النظري الإسلامي للرأسمالية كفكرة وأيديولوجية أمر أصبح معروفًا في أوساط المفكرين والمنظرين الغربيين؛ حيث من الممكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية للفقراء والمستضعفين، ومن الممكن أن يكون الإسلام جذرًا ثقافيًا للثورة العالمية ضد الرأسمالية خاصة بعد إفلاس الشيوعية، وهي كلها اعتبارات ترشح الإسلام كهدف للحرب العالمية الرابعة وهو ما حدث بالفعل.

وقد أحدثت هذه الحرب أشكالاً متنوعة، وما زالت تحمل في طياتها المزيد من الوسائل، وقد تخلت أمريكا والغرب عن أي أخلاق شكلية في إطار هذه الحرب لأنها من وجهة نظرهم حرب، وفي الحرب يسقطون كل الاعتبارات الأخلاقية ولم يعد غريبًا أن نسمع أنباء قتل الأسرى أو إطلاق الرصاص على العزل أو تعذيب المعتقلين.. المهم أن هذه الحرب اشتملت على الوسائل العسكرية المباشرة؛ متمثلة في المزيد من العدوان الصهيوني ومتمثلة من غزو واحتلال أفغانستان ثم غزو واحتلال العراق واستخدام كل وأحدث الوسائل العسكرية الفتاكة في هذا الصدد، كما اشتملت على محاولة ترويض الجمهور الإسلامي بالدعايات الغازية، ومحاولة تشويه المفاهيم الإسلامية بما يُسمى بتغيير مفاهيم معينة في القرآن

الكريم - وهو أمر مستحيل - أو ما يسمى بتجديد الخطاب الديني، وهو تخريب وتزييف الخطاب الديني، وما يسمى بتغيير مناهج التعليم لدعم ما يسمى بثقافة (السلام) - الصحيح ثقافة (الاستسلام)، وتقليص المدارس الدينية الشرعية وحصار المؤسسات التربوية والإعلامية الإسلامية وإنشاء قنوات فضائية وصحف تعمل على ترويج النموذج الأمريكي، والإساءة للمقاومة « العراقية والفلسطينية خصوصًا » ؛ بل وصل الأمر إلى حد أن تطلب الإدارة الأمريكية إغلاق المساجد الصغيرة والزوايا بدعوى أنها بؤر لتفريخ التطرف، وأن يتم استخراج تصريح - به تعقيدات كبيرة - لإنشاء أي مسجد جديد، وكذا محاربة العمل الخيري الإسلامي واتهام الجمعيات الخيرية الإسلامية باعتبارها الساق التي تربط الأوراق والثمار والفروع بالجذور؛ اتُهِمت بالإرهاب، ويجب حلها ومصادرة أموالها والإساءة إلى سمعة القائمين عليها أو حتى اعتقالهم وسجنهم وتلفيق القضايا لهم.

وهي كلها أساليب في حرب عالمية رابعة شاملة ضد الإسلام والمسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

الفهرس

الفهرس

